شهر العسل المر

قصص إيطالية مختارة

ترجمة: إدوار الخراط

54

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

آفاق الترجمة

شهر العسل المر

ترجمة : ادوار الخراط

رئيس مجلس الإدارة

د. مصطفى الرزاز

المشرف العام

علي أبو شادي

رئيس التحرير

د. منى أبو سنة

مدير التحرير

عصمت قنديل

سكرتير التحرير

إبتهال العسلي

استشاريو التحرير

د. مراد وهبة

د. إبراهيم البحراوي

د. أحمد مستجير

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالي ١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني - القاهرة - رقم بريدي ١١٥٦١

العنوان الأصلى للكتاب

مجموعة قصص مختارة

«قصص إيطالية مختارة»

ترجمها وقدّم لها

إدوار الخراط

إيجنازيو سيلونى

ولد سنة ١٩٠٠ فى بلدة صغيرة فى جنوب إيطاليا، وتلقى فى صباه انطباعات مسيحية كان لها أفعل الأثر طوال حياته التى يهيجها أبداً نشاط سياسي لا يفتر ونشدان فكرى مرتبط أبداً بالمستضعفين من الناس.

وقد اختير، وهو فى السابعة عشرة من عمره، سكرتيرا لحركة الفلاحين التى أخذت تنمو ويشتد ساعدها فى بلده، ثم أصدر جريدة اشتراكية فى روما، والتحق بالحزب الشيوعى وكان عضوا بلجنته المركزية ابتداء من سنة ١٩٢٥. وهاجم الفاشيين فى جريدته، وواصل كفاحه السرى تحت الفاشية، ثم استقال فى سنة ١٩٢٩ من الحزب الشيوعى. وغادر إيطاليا لاجئا إلى سويسرا حيث كتب «فونتمارا» و «الخبز والنبيذ» و «القمح تحت الثلج» وبقى فيها حتى ١٩٤٤، وفى أثناء الحملة الإيطالية، قبل سقوط الفاشية، عاد إلى إيطاليا مستخفيا، كأحد أبطال رواياته، فى زى قسيس ريفىّ، بعد أن كان قد أصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى الإيطالى فى سنة ١٩٤٤، وعاد إلى مشاركته النشطة فى السياسة فعمل محرراً رئيسياً بالجريدة الاشتراكية «أڤانتى»، وانتُخب عضوا فى الجمعية التأسيسية. وشغل منصب رئيس الفرع الإيطالى لجماعة «الشعر والمقالة والقصة» (القلم).

فى كلمة من كلماته قال: «لاينبغى أبداً أن نوحد بين قضية القيم الخُلُقية، وبين قضية الدولة».

وهى عبارة تكشف عن جانب هام من موقفه.

من ذلك كله يتبين اهتمامه بالمصير الإنسانى فى المجتمع المعاصر

الذى يخوض غمار ثورة إنسانية شاملة.

سيلونى من أول ممثلي تلك الحقبة من المفكرين الثوريين الذين حبطت آمالهم فى الربع الثانى من القرن العشرين، وتبين لهم أن أزمة الإنسان المعاصر مازالت ممتدة عميقة متغلغلة الجذور : وتنصبّ عنايته فى أعماله الفنية على علاقة الثورى بالرجل العادى فى حياته الشاقّة المكبوتة. وقد اشتق سيلونى لنفسه، نوعاً من الفوضوية المسيحية المعذّبة. فيها استشهاد المسيحيين البدائيين واستقامتهم الخلقية النزيهة الصلبة، وفيها تلك الصلة الحميمة الوثيقة بالمستضعفين، فى أرضهم الممزّقة الغنية بالوعود، وفيها ثورية لا يائسة ولا مخدوعة.

رواياته تجرى فى مستوى صوفى من الوضاءة الإنسانية التى تمتد فى حنوٍ متألم على عذابات الإنسان، وفى وجدان عميق بعواطفه الساذجة الوطيدة، وفيها أُلفة به، ومحبة له، ولكن فيها أيضا شجاعة القديسين التى لاتؤمن - كما قال: «بموت المسيح ولا ببعثه، ولكنها تؤمن بعذابات احتضاره».

«فمازال الجياع والعطاش إلى العدالة يُعيَّرون ويُطردون ويدانون بالموت.. ومازلنا فى يوم الجمعة الحزينة».

الريف الإيطالى فى أعماله الروائية يحيا ويستضىء، ويطّرد على نسق حياته الشقية الصابرة الخشنة، ويموج بناسه وقد كشَفت عنهم محبته المسيحية المعاصرة فإذا هم مصلوبون دائما، باحثون عن الطريق، والثوريون معهم مصلوبون أيضاً، ولكنهم لايستثنيمون وما زالوا ينشدون معهم الملكوت على هذه الأرض.

أيا كانت المآخذ التى يمكن أن تؤخذ على سيلونى من الوجهة

الإيدلوجية أو من حيث الموقف السياسى، فلا يمكن أن تنكَر عليه أصالتُه الفنية، وعمق حسه بالعذاب والأخوة بين المضطهدين فى الأرض، وبحثه المخلص الحار عن العدالة وإن تباينت الآراء فى الطريق التى تُتخذ إلى هذه العدالة.

«على الطرق المتربة»

«إيجنازيو سيلوني»

كان يحجل على الطريق المهجور رجل ضئيل رث الثياب حافى القدمين، تحيط بيديه القيود الحديدية، بين شرطيين من رجال «الكارابينيرى». وكان يحجل على نحو مؤلم، كما لو كان يقوم بخطوات صعبة فى رقصة ما. ولعله كان أعرج، أو لعله أصيب بجرح فى قدمه. وفى ضوء الشمس الساطع كان الشرطيان بردائهما الأسود يشبهان مساعدى حانوتىّ، وكان الرجل الضئيل بينهما يشبه حيواناً وقع فى المصيدة، فى خندق ما، ينبض بالحياة وبما فيه من شئٍ ما يتصل بالأرض. وكان يحمل على ظهره حزمة يصدر عنها صوت هواء، كسرخة طائر زيز الحصاد، والصوت يصاحب حركته فى الحجل والوثب.

كنت أجلس على عتبة الباب، وقد فتحت كتاب الإملاء على ركبتى، أصارع الحروف المتحركة والحروف الساكنة، عندما لحظت اقتراب هذا المنظر المضحك المثير للرثاء. وقد كان فيه ترويح غير منتظر لما أنا فيه من عناء، فأخذت أضحك. وتطلعت حولى أبحث عن شخص آخر أشاركه دهشتى، وعندئذ سمعت وقع خطوات أبى الثقيلة وافداً من البيت.

فقلت ومازلت أضحك: انظر، أليس مضحكا؟

ولكن أبى رمقنى بنظرةٍ صارمة، وانهضنى بعنف على قدمىّ، وجرّنى من أذنى إلى غرفة داخلية. لم أكن قد رأيته أبداً من قبل على هذه الصورة من الحنق.

فسألته وأنا أدعك أذنى المتورمة: ماذا فعلت؟

– يجب ألا تضحك أبداً. أبداً، من سجين.

– لماذا؟

– لأنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه. ولأنه بعد ذلك، قد يكون بريئاً، من يعرف؟ ولأنه، على أى الأحوال، عاثر الحظ.

ترك الغرفة دون أن ينبس بكلمة أخرى، وبقيت وحدى، فى حيرة جديدة علىّ. ولم تعد تهمّنى الحروف الساكنة والمتحركة ولا تجميعاتها وتطوّراتها. وفى مساء ذلك اليوم، لم يرسلنى أبى إلى الفراش فى الميعاد المعتاد، بل فعل شيئاً غير مألوف. أخذنى إلى الميدان. ولم نجلس فى الطرف الأقصى من الميدان، بجوار بوّابة الكنيسة، كما كان دأبه، بل جلسنا إلى مائدة خارج «قهوة الأعيان» حيث كان بعض الناس ينشقون نسمات من الهواء المنعش، بعد اليوم القائظ.

كان أبى على علاقة طيبة بوكيل النيابة، فسأله: ما تهمة الرجل الذى قبض عليه اليوم؟

وأجابه وكيل النيابة: السرقة.

فواصل أبى أسئلته: من أين أتى؟ أهو متشرد؟ متعطل؟

– هو عامل فى مصنع الطوب، وقد سرق شيئا من صاحب المصنع. هل سرق منك شيئاً أنت أيضاً؟

فقال أبى: هذا غريب لقد ظننت، عندما رأيته حافى القدمين، لا تغطيه إلا خرق مهملة، أنه هو الذى سُرق منه شئ ما.

كان منظر سجين ما، و يداه مغلولتان بالحديد، بين شرطيين أو ثلاثة من «الكارابينيرى» منظراً مألوفاً كثير الحدوث فى تلك الفترة، على الطريق الذى كان بيتنا يطل عليه. إذ كان يتعين أن يمر من هذا الطريق كل من قبض عليه فى إحدى القرى العشر التى تقع فى نطاق اختصاص محكمتنا. ولما لم تكن وسائل النقل الأخرى متوفرة،

فقد كانوا يأتون بهم على الأقدام. وكان هذا الطريق هو الشريان الرئيسىّ الذى يصل قريتنا بوادى «فوشينو». وكان الطريق غير مرصوف، فكان مظهره يتفاوت بتفاوت فصول السنة. وكان يلتمّ كل صباح على الطريق موكب طويل من الحمير، والبغال، والبقر، والعربات التى تنتمى إلى كل الأنواع، ومن معظم الرجال القادرين على العمل من السكان. وكان نفس الموكب يعود كل مساء، حتى آخر الليل، زاحفاً، منهوكا، فى الاتجاه العكسىّ. وكان أهم معالم الطريق، فى جيرة القرية، نافورة تنصبّ فى حوض كبير تتوقف لديه الماشية فى الصباح، وتقف فى صف طويل، تفثأ ظمأها وتشرب زادها من الماء طول النهار.

كان حدثاً مهما قبولُ أبى أن أصحبه إلى وداى الفوشينو للمرة الأولى. وأحسست مرة واحدة أننى قد بلغت رشدى. وقد أوقظنى، والعتمة ما زالت مخيّمة، ولكنه كان قد أطعم الثيران، وأعدّ العربة أمام الباب. وكان جرم الثيران الهائل، فى ضوء السحر الباهت، وتلك البساطة البدائية فى الأشياء المحمّلة على العربة: المحراث، وشوال من الدريس، وقوارير النبيذ والماء، وسلة الطعام الخشبية – وصيحة الديك الفجائية التقليدية غير المنتظرة، تمثل كلها تلك الحياة الجادة التى أتيح لى اليوم أن ألج بابها. وقد كان يتحتم علينا أن نبدأ فى ذلك البكور، لأن غيطنا كان يبعد حوالى خمسة أميال عن القرية، فى الجانب الداخلىّ من الوادى، وقد كان من الأحكم لنا، وللثيران أن نبلغه مشرق الشمس. فالعربة التى تجرها الثيران تتحرك، كما هو معروف، بسرعة المشى تقريبا. ولكن بطء العربة كان يتفق ومزاجى عندئذ، مزاج الصبىّ الرجل الذى أتيح له، للمرة الأولى، أن يشارك

فيما يحفل به الراشدون الكبار. وأخذت أرقب الفلاحين الذين كانوا يرافقوننا على الطريق، أو يمرون بنا، في موكبهم من الماشية والعربات. واسترعاني جمودهم، وجدهم، وصمتهم، فحاولت أن أسلك كما يسلك الجميع، وأن أخفي مشاعري. بل لم يكربني أن أبي، وقد غاص في أفكاره الخاصة، لم يكد يوجه لي كلمة واحدة، فقد كان في ذلك البرهان على أنني لم أعد عنده طفلاً. وإذ كنا نتقدم في بطن الوادي أخذ حشد الفلاحين والعربات والبغال والحمير يتفرق إلى اليمين وإلى اليسار، حتى لم يعد غيرنا على الطريق، في النهاية.

وعندئذ أدرك أبي فجأة أنه نسي شيئاً في غاية الأهمية، قسطه من الطباق في ذلك اليوم. كيف يتأتى له أن يقضي اليوم بطوله، في هواء الوادئ الرصاصي الثقيل، من غير تدخين؟

لم يكن أكثر الفلاحين فاقة ليستطيع أن يستغني عن الدخان في الفوشينو. وكانت الشمس قد أشرقت، وكنا ذهبنا مسافةً في الوادي لم يعد ممكناً بعدها أن نفكر في الرجوع. وأحسست بالمهانة إذ كان أبي لا يفتأ يردد: لم أنسه أبداً من قبل. أبدا. أبدا. فهل كان يعني أن الذنب ذنبي؟ ها هي سحابة تأتي فجأة، فتغيم على اليوم الذي كان ليصبح عندي يوماً مشهوداً. وعندما بلغنا أرضنا، أطلق أبي الثيران من العربة، وعلقها بالمحراث، دون كلمة، بل دون أن يرميني بنظرة واحدة. وكان الطريق الطويل الذي تحفه أشجار الحور مهجوراً، شأنه شأن الغيطان المستطيلة المجاورة لغيطنا. فلم يكن ثمة أمل حتى في أن نجد شخصاً من معارفنا يرضى بان يشارك أبي في طباقه.

كان أبي على وشك أن يبدأ في حرث أول شق في الغيط، عندما

ناداني قائلا: خذ هذه النقود، وقدمها لأي شخص يمر بالطريق، في مقابل سيجار، أو شيئاً من الطباق.

وكانت الشمس قد حميت، ولم يكن من المحتمل أن يمرّ شخص ما بالطريق في تلك الساعة. وخلع أبي رداءه، ورفع المنخاس الحديد، وصاح بالثيران في نبرة الغضب. وجلست مكتئباً على حافة القناة المعشوشبة التي تفصل الحقل عن الطريق، وأنا أرقب أبي محنياً على المحراث خلف الثورين، يذهب ببطء ثم يعود، ويذهب ثانية، ويخط خلفه شقوقاً مستقيمة ربداء في التربة التي كان قد سوّدها السباخ المحروق. وكان الثوران يقومان بمهمتهما، في بطء، وهدوء، ونظام، على أن الشمس كانت قد أخذت ترسل شواظها اللاذعة. ولم يكن حاجز أشجار الحور العملاقة التي تحيط بالحقل من جوانبه الأربعة يهتز بأهون نسمة من الهواء، وكان الماء في القناة ساكنا لا حراك فيه، طينياً، كما لو كان آسناً، راكدا. وغلبني حس غير مستبين بالغثيان والنعاس، وشعرت كما لو كنت أوثر البقاء في البيت ولكن صوت أبي، قرابة الظهر، خضني من همودي. كان يأتي في اتجاهنا فلاح يركب حماره الضئيل. وقد كانا يبدوان بالفعل كما لو كانا يسبحان على تلك السحابة الدانية الكثيفة من الغبار تثيرها حوافر الحمار المختفية في التراب. فجريت لألقاهما، وأريته النقود، وطلبت على الفور مقايضتها بالطباق، وأنا أريه أبي، والثورين، وقد توقف في وسط الحقل. وكان الرجل يبدو، في مظهره، من أكثر الفلاحين فاقة.

فأجابني: ليس عندي سيجار بأكمله. نصف سيجار لا غير.

فقلت، وأنا أمشي بجوار الحمار: حسنا. خذ هذه النقود، واعطني

ما عندك أياً كان.

فسألني: ولماذا أقضي النهار بطوله، في الفوشينو، دون تدخين؟ هل أبوك أحسن مني؟

وأجبته: ليس أبي أحسن منك. ولكنه إذا ضايقه شيء، فربما انقضى الأسبوع بأكمله دون أن يتفوّه بكلمة.

فقال الرجل: وماله. يعرف شغله.

وقد أخذ يعتريني اليأس، ومازلت ماشياً بجوار الحمار. كيف لي أن أحصل على السيجار؟

فقلت: عندنا غداء طيب في السلة الخشبية، وسأعطيك نصيبي إذا شئت. وفي القارورة عندنا نبيذ طيب، من عنبتنا.

فقال الرجل وهو يعطيني نصف السيجار: خذ. خذه هدية.

- ألا تأخذ النقود؟

-لا. ماذا يفعل الواحد بنصف سيجار؟ إما أن يرفض، أو أن يعطيه، بلا مقابل.

فلم أواصل الإلحاح، كنت في عجلة من أمري لأفاخر بما فعلت أمام أبي.

قال أبي، عندما أبلغته بحديثي القصير مع الفلاح: غريبة. كان ينبغي على الاقل أن تعرف اسم الرجل.

وانقضت بضعة شهور، وكنت أجلس ذات مساء أمام العتبة، وعلى ركبتي «خرافات فيدروس»، عندما أتى، من الطريق، ذلك الرجل الذي أعطاني نصف السيجار، بعينه، ويداه مغلولتان بالقيود الحديدية، بين شرطيين من «الكارابيينري». عرفته على الفور، وخفق قلبي بضعف. وجريت أبحث عن أبي لأخبره بما حدث، لكنه لم يكن

في البيت، ووجدته بعد ذلك يسقي البقرات. ولابد أنني كنت مضطرب المظهر جداً، إذ أن منظرى أزعجه حتى سألنى ما إذا كان قد وقع شيء في البيت.

كان اليوم التالي يوم أحد. وعندما خرجت من الكنيسة بعد القداس، وجدت أبي ينتظرني ليأخذني معه إلى وكيل النيابة.

وقال أبي. أخبره بنفسك بالحقيقة. فأنت تعرف الرجل خيراً مني.

قال وكيل النيابة: لقد قبض عليه متلبساً بالسرقة.

فدهشت أعمق الدهشة. كان بوسعي أن أتصوره قاتلا، لكني لم أستطع أن أصدق أنه كان لصا.

حاول أبي أن يفسر الأمر لي. لابد فعل شيئا دعا الشرطة والنيابة لأن تعتقد إنه كان لصا. ولكن الله وحده يعرف ماذا فعل.

كان وكيل النيابة طيب القلب، فأعطانا تصريحاً بزيارة الرجل فى السجن، ومازلت أذكر أدق تفاصيل هذه الزيارة، إذ كانت تلك أول مرة أضع فيها قدمي في مثل ذلك المكان، نظراً لصغر سني عندئذ. واقترح أبي أن نأتي له معنا بهدية صغيرة.

فقلت: أحسن شئ أن نأتي له بعلبة سيجار.

أدخلنا السجان إلى غرفةٍ عطنة، وأشار إلى فتحة في الجدار كان مسموحاً لنا أن نحدث السجين منها. وعرفني السجين من أول نظرة.

كان طريقنا يتشعب، على كلٍ من جانبيه، إلى بضعة أزقة ضيقة تصطف عليها مساكن صغيرة، تتكون في الغالب من دور واحد. وكانت تعيش فى أحدى هذه المساكن امرأة صبية، جويديتا، صانعة السلال. وقد أطلق عليها ذلك الاسم لأنها واصلت مهنة أبيها في

صنع السلال من الخوص، والسلال الخشبية. ولم تكن تلك مهنة تقيم أود صاحبها، ولكنها على أية حال تحول دونه والموت جوعا. وكانت قد تزوجت، وهي ما تزال غضة السن جدا، بفلاح لا أرض له، هاجر إلى بنسيلفانيا، بعد زفافه بقليل، وفي نيته أن يكسب ما يمكّنه من العودة وشراء قطعة من الأرض، وبستاناً للخضر، وكرمة أيضا إذا كان مجدوداً. وبعد أن مرت على جويديتا سنة من القلق واليأس، وغلبها الفقر، وغلَبها قبل كل شيء، *الخزي* لهجران زوجها، حاولت أن تشنق نفسها. لكنها أنقذت، في ظروف غريبة شيئاً ما. إذ مرّ ببيتها شحاذ من ناحية أخرى في البلد، ودخل في تلك اللحظة بالذات يطلب منها كسرة من الخبز. وخلصها الشحاذ المجهول من الأنشوطة التي كادت أن تخنقها، وأرقدها على مرتبة القش، ونادى النسوة من الجيران ليعنين بها، ولم يستطع أحد أبداً أن يعرف من هو ذلك الغريب، ولا من أين جاء، ولا كيف خطر له أن يأتي لطلب الصدقة في مثل هذا الزقاق البائس، فقد اختفى دون أن يترك أثراً.

وقد أثارت جويديتا، بفعلتها اليائسة، اضطراباً كبيراً في *القرية*، ومالت النفوس جميعاً بالعطف الكبير عليها، ومسّ تعثر حظها قلوب الناس جميعاً مساً وثيقاً. ذلك أن مصدر *الرزق الرئيسي*، في هذا الحين، للعائلات الفقيرة في ناحيتنا تلك من العالم، كان يأتي من حوالات البريد النقدية التي كان يرسلها الأقارب المهاجرون إلى أمريكا. وقد كانت الخطابات الآتية بعلامات بريد فيلادلفيا أكثر بكثير، في حقيبة نيكولا ساعي البريد، من الخطابات الآتية بعلامات بريد روما أو ميلانو، وكاد انتظار مثل هذه الخطابات أشق وأشغل للأذهان، إذ كانت تأتي أحياناً، وهي مغلقة، كما لو كانت تتضمن

بقايا قديس، بأختامٍ كثيرة بالشمع الأحمر. كان نيكولا ساعى البريد يجعل المستلم يوقع على دفتر عنده قبل أن يسلمها. واتخذ ساعى البريد، فى نظر الكثيرين، دور العم الخيِّر الكريم فى الحواديت والأساطير. وكانت خصاله الدمثة، وطيبة قلبه، وتدينه، تتفق وهذا الدور خير اتفاق. وقد كان فى صباه يريد أن يصبح قسيساً، ولكن المقدرة المالية على استكمال الدراسة كانت تعوزه. ولعل بقاءه عزبا طيلة حياته كان نوعاً من الاستجابة لهذا الحافز الدينىّ فى طبيعته، وقد كان يومىء بنفسه إلى ذلك أحيانا. وكان بعض الناس يأخذون عليه شغفه بالخمر أكثر ما ينبغى قليلا، لكنه وإن سكر، لم يكن صخابا ولا منفرا. وكان ابى يقول إن فى ساعى البريد عيباً واحدا: كان يؤثر الشراب وحده، فى البيت، على الشراب مع الصحاب. لكنه لم يكن ليرفض مع ذلك كأساً من النبيذ، عند تسليم خطابٍ مسجل.

إلا أن الخطابات الآتية من فيلادلفيا لم تكن، لسوء الخط، تأتى دائما بما يرضى ويسر الخاطر. فقد كانت تنبئ بحوادث تقع فى العمل أحيانا، بل عرفت بضع حالات - وإن كانت نادرة - لم يُعنَ الرجال فيها باقتصاد شئٍ ما لعائلاتهم، أو كفّوا تماماً عن الكتابة إليها. إلا أن زوج جويديتا بزّ الجميع فى غرابة سلوكه. فهى لم تتلق دولاراً واحداً منه، بل لم تتلقّ أى خطاب إطلاقا، وإن كان عن المعروف، من طريق القرويين الآخرين الذين هاجروا إلى نفس المكان، أنه كان يشتغل شغلاً طيبا، وأنّه كان يفاخر بما يرسله للبيت، بانتظام، من نقود. وانحلّ اللغز بعد بضعة أسابيع من محاولة جويديتا الانتحار. وعندما تسريب الأخبار بأن نيكولا ساعى البريد اختلس كل الخطابات التى كانت مرسلة باسم المرأة الشقية، أُخذ

السكان جميعاً بالدهشة، والفزع. ولعل ساعي البريد قد أفلت، باختفائه، من الموت على يد الأهالي. بيد أن روع هذا الاكتشاف ظل يحوم حول القرية، ولم يكن بوسع أحد أن يكف عن الكلام فيه، وكان أبي – بعكس المألوف من – عادته، يشارك الناس في ثورتهم تلك؛ ويجد في ذلك كلها تأييداً لقلة ثقتة بالسكيرين المستوحدين الفرادى.

ومازلت أذكر أن أبي دعا ضيوفاً إلى البيت،بعد رحلةٍ خرجوا فيها جميعاً للصيد، وكان الحديث ما يفتأ يرتد إلى ساعي البريد، وقد كان هارباً لم يُعثر عليه بعد.

وقال أحد الحاضرين لأبي: افترض أنك كنت تتعقّب أرنباً في أحد الأيام، وإذا بك تقع على ساعي البريد فجأة، ماذا تفعل؟

فقال أبي، في جد. لست اطمئن إلى نفسي في أن أقاوم إطلاق الرصاص عليه.

وكان الضيوف يشربون القهوة، عندما صدر عن حديقة الخضروات وراء البيت أصوات نقيق الدجاج المضطرب، وهيجانه.

وقال لي أبي: اذهب لنر ما هناك. لعله كلب ضال. وكان يوجد في الطرف الأقصى من الحديقة، بين الصف،الأخير من صفوف الطماطم المزروعة، وبين سور الشجيرات النامية على شط النهر، خندق عميق كنّا نرمي فيه، قبل ذلك، بالسباخ. وكان ساعي البريد يقعي في الخندق، كحيوان مذعور. ولم أكن أنكر عليه آثار القذر ومشاق الهرب البادية عليه، بل أنكرت في وجهه تلك النظرة المنهوكة القانطة الخائفة، فلم أعثر فيه على ذلك العم الخيرّ الكريم الذي طالما ألفت رؤيته، بطيبة قلبه، وفرحه ودَعَة جانبه.

قال: أخبر أباك أنني هنا. سأسلم نفسي للكاربينيري، ولكن يجب

أولاً أن أكلمه.

وجريت راجعاً إلى البيت، وقد تملكني الذعر. لم أكن أعرف ماذا أفعل. تمتمت ببضع كلمات لا رابطة بينها، وإن كان تأتّى لي أن أقول، إذ كان أبي على وشك الذهاب إلى الحديقة: كان هناك كلب، ولكن ذهب الآن.

وضحك الجميع على قلة شجاعتي، ولما بقيت أرتعش، ووجهي لا ينجاب عنه الشحوب،أرسلني أبي إلى الفراش لأنام.

وعندما انصرف الضيوف جاء أبي ليراني، وسألني:

– لم يكن هناك كلب – أليس كذلك؟

–لا.

– من كان هناك؟

– أنت تستطيع أن تخمن.

– ما زال هناك؟

– في الخندق، بالقرب من شجر السور.

– هل قال شيئاً؟

– قال إنه سيسلّم نفسه للكاربينيري، ولكنه يريد أن يكلمك أولا.

وقلت، بعد فترة:

– هل تقسو عليه؟

فقال أبي:

– إنه ضيفنا الآن.

كورادو ألفارو:

ولد فى سنة ١٨٩٥. وكان ضابطاً فى المشاة فى الحرب العالمية الأولى. وابتدأ حياته الأدبية بمجموعة من الشعر نشرت فى ١٩١٧. واشتغل بعد ذلك ناقداً صحفياً. وكتب رواية طويلة لها منزع إلى التحليل السيكولوچى. وحصل على جائزة أدبية فى سنة ١٩٣١.

وقد أثارته التجربة السوفيتية وشاقه، شأنه شأن الكثيرين من المعاصرين، فكتب روايتين عنى فيهما بعلاج مشكلة صراع أفراد الشعب السوفيتى، عندئذ، فى محاولتهم التوفيق بين نزعاتهم الإنسانية المتناقضة بفطرتها - ضرورةً - وبين الإطار شبه العلمى المفروض على مجتمعهم فرضاً فى تلك الفترة.

وقد اتخذ موقفاً مناهضاً للدولة الإطلاقية عامة. اضطر إلى الاختفاء أثناء الاحتلال الألمانى لإيطاليا، إذ كان مناهضاً نشطاً للفاشية.

ويتراوح موقفه فى العمل الفنى بين الواقعية والتخييل، وفى قصصه القصيرة نغمة رومانسية تذكّر بهوفمان.

وفى «الياقوتة» صورة لمهاجر يعود إلى بلده فى الريف، من أمريكا، يحمل معه كنزاً لم تجسر أكثر أمنياته إغراقاً وسرفاً أن تحلق إليه، لكنه لا يدرى، ويحيا حياته، كما يحياها قرناؤه، فى دكانه الريفى الصغير. وهو يعبث أحياناً بالكنز، كما لو كان يعبث بفضلةٍ لاوزن لها من سقط المتاع، كأنه مازال فى قرارته طفلاً، ثم يعطيه لابنه الطفل، كى يلعب به.

ويعود الكنز الذى اهتزت لضياعه آمال مدينة بأسرها، وصحفُ العالم كله، حليةً تافهة، ولعبةً فى يدى طفل، والكنز الذى عاد به

المهاجر هو بضع سلع تافهة الشأن ورؤياه لعالم غريب أجنبى عن ريفه، رؤيا خاطفة ما تزال تبهره وتثيره، وبضع آمال واعدة لم تتحقق، ولعل كل قيمتها أنها لم تتحقق، يخبو ضوؤها مع الزمن بالتدريج. وما قيمة الكنز الباذخ فى حجر لا يفترق - حقاً - عن حبةٍ من الجوز أو بليةٍ من الزجاج، بجانب حنين بضع ذكريات، وعدة أمنيات تجيش بها نفس إنسان؟

«الياقوتة»

«كوردادو ألفارو»

صدرت الصحف اليومية، وبها خبر من تلك الأخبار التى تثير طنيناً من الانفعال فى مدينة ما طوال اليوم، ثم تدور بالعالم كله بعد ذلك. فقد اختفت ياقوتة فى حجم حبّة الجوز، حجرٌ كريمٍ شهير، تحمل اسماً شهيراً، ويقال إن لها قيمة هائلة. ذلك أن أحد الأمراء الهنود كان يرتدى هذه الجوهرة، على سبيل الزينة، أثناء زيارته لإحدى مدن أمريكا الشمالية. ثم أحس فجأة بأنه قد فقدها، بعد انتقاله فى تاكسى أوصله، متنكرا، إلى فندق فى الضواحى، إذ أنه كان قد أفلح فى الإفلات من اهتمام حرسه الخاص، والبوليس الأمريكى، على السواء. وعُبئت الفرقة الخاصة، واستيقظت المدينة كلها على الخبر. وحتى الظهر، جعل مئات الناس يأملون أن يجدوا الحجر الكريم فى طريقهم. ومرت على المدينة إحدى موجات الاستبشار والانفعال، إحدى موجات ذلك الشعور الذى ينبع عن إثراء الآمال وازدهارها فجأة فى قلوب الآلاف، نتيجةً لبذخ فرد واحد. ولم يكن الأمير صريحاً جداً، فى التحقيق، مع البوليس. ولكن أقواله كانت تنأى بالسيدة التى كانت تصاحبه عن نطاق الشكوك نأياً تاماً صريحاً، وتنفى عنها كل مسئولية لضياع الجوهرة، فلم يكن للبوليس إذن أن يحاول العثور على السيدة المذكورة.

وجاء سائق التاكسى ليشهد أنه أخذ الأمير الهندى الذى كان يرتدى عندئذ عمامته الثمينة، وقرر أنه أنزله – مع السيدة – أمام فندق فى الضواحى. وكانت السيدة أوربية، وكان الشئ الوحيد الذى يميزها لؤلؤة رائعة، فى حجم الحمصة، ترتديها فى عرنين أنفها الأيسر، على طريقة بعض الهنديات الثريأت. وأهاج ذلك اهتمام

الجمهور، فترة من الزمن، وحوّله عن الياقوتة الضائعة، وأيقظ فضوله. وبعد أن قام السائق بالبحث والتنقيب، بعناية، تامة، في داخل سيارته، راجع الزبائن الذين أقلّهم خلال ساعات الصباح الباكرة حتى ذلك اليوم. وقد كانوا أولاً رجلاً من رجال الأعمال، وأجنبياً أقلّه حتى الميناء ولا شك أنه سافر إلى أوربا، وامرأة. أما الأجنبي، وفي الوسع التعرف على أنه إيطالي الأصل، فقد خرج من أحد هذه البيوت التي يعيش فيها المهاجرون، في مستعمراتهم، وكان يرتدي بنطلونا رحباً فضفاضاً من الصنف الذي يروق للمهاجرين، وحذاء خشناً غليظ النعل من نوعٍ لم يعد يرى اليوم إلا في أقدام ناس ينتمون إلى تلك الطبقة الاجتماعية، وقبعةً عالية صلبة مغروزة على وجه نحيل حليق انتشرت فيه شبكة من التجعدات. وكان متاعه يتألف من حقيبة ثقيلة مربوطة بحبل متين، وصندوق آخر كبير الثقل حقاً يبدو أنه من الصلب. وقد أبحر في نفس اليوم. ولكنّ كل الشكوك التي كانت قد حامت حوله استبعدت إذ تبيّن أنّه تصرف يومها كما لو كان يركب «تاكسي» لأول مرة في حياته. فهو لم يفلح في أن يغلق الباب تماماً وراءه، وظل طيلة الوقت يحتضن الزجاج الاماميّ الفاصل بينه وبين السائق كما لو كان يخشى على الأرجح أن ينتره التاكسي إلى الخلف ويقذف به إلى الشارع، وكان يحدّق في الشوارع كما لو كان يهم بمغادرة المدينة إلى الأبد. أما السائق فقد أولى اهتمامه ذلك الرجل الذي ترك الفندق، في الضاحية، فاستقل التاكسي مباشرة بعد نزول الأمير، وأمره بأن يسوق إلى حيّ العمال الإيطاليين، حيث حل الأجنبيّ هناك محله. وأخذ البوليس يبحث عن ذلك الزبون الذي لا شك كان من سكان المدينة، وقد أمدهم السائق

بأوصافه على التدقيق، ولكن عبثا. هذا إلى أنه لم يستجب للنداء الذى نشر فى الصحف، مع وعدٍ بجائزةٍ ثمينة، فقد كان ذلك إذن دليلاً منطقياً على أنهّ لم يستول على الجوهرة النفيسة. إلا أن الحجر الضائع كان حجراً شهيراً فى كل أرجاء العالم، ويسهل التعرف عليه، ولذلك فقد كان المأمول أن يظهر إذن، فى أحد الأيام.

وفى هذه الأثناء كان المهاجر فى طريقه إلى وطنه فى بلدةٍ ريفية بجنوب إيطاليا، بعد غيبة خمس سنوات، وكان على أتمّ الجهل بكل هذه الضجة، وقد رجع معه مجموعة من الأشياء المتنافرة، حتى بالقياس إلى مهاجر عائد إلى وطنه. وحقيبته المصنوعة من الجلد الاصطناعى، الذى يظنه هو جلداً أصليا، كانت تحتوى عفريتته الزرقاء، مكوية نظيفة، واثنى عشر قلماً من أقلام الأبنوس كان ينوى أن يبيعها لأهل الناحية، ناسياً أن معظمهم من رعاة البهائم، وأنه ليس فى الناحية كلها أكثر من نصف دستة من السكان بوسعهم أن يخطوا كلمة على الورق. وقد رجع أيضاً ببضعة أطقم مفضضة من الصحون والملاعق ونحوها، وماكينة حلاقة للشعر كان قد استغلها على رؤوس زملائه من العمال، وشيئاً معدنيا كانت وظيفته تحيرّه تماما – فقد كان على شكل مسدس، لكنه لا يطلق النار – واثنتى عشرة قطعة من القماش الأمريكى، وبضع طُرَفٍ لتسلى، وتبهر، زوجته وولده وأصدقاءه. وكان أثقل ما فى متاعه خزانة من الصلب، مكسرة الأطراف بعض الشئ لا ينفتح قفلها إلا بتجميع ستة حروف يتألف منها اسم «أنّينا». وعاد بألف دولار نقداً، منها ثلاثمائة يجب ردها إلى من اقترضها منهم، لتغطية نفقات رحلته. وكان يحمل فى جيب صديريته قطعة من الزجاج الأحمر، متعددة الوجوه، فى حجم

حبة الجوز. وقد عثر عليها بالصدفة فى التاكسى الذى أقله إلى الميناء، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن قيمتها. وقد وقعت عليها أصابعه خلف وسائد الكرسى، فى التاكسى، فاحتفظ بها على سبيل التعويذة، لجلب الحظ الحسن فى المستقبل. وربما علقها فى سلسة ساعته، حلية. والغريب أنه ليس بها ثقب محفور فى داخلها، ولذلك فلا يمكن أن تكون من هذه الأحجار التى تعلقها سيدات المدن فى عقودهن.

والأشياء المتفاوتة التى يلتقطها المرء، ويجمعها، قبل ان يترك بلداً غريباً، تكتسب فى العادة قيمة عاطفية فذّة، كما لو كانت تجعل المرء يستشعر مقدماً أحاسيس الغربة والبعد والحنين إلى الوطن. ومثل هذه العاطفة بالضبط هى ما كان يحسها صاحبنا المهاجر نحو تلك القطعة من الزجاج، باردة، ناعمة الملمس، شفافة رائعة كقطعة من الكرملّة.

وكان قد فتح دكانا صغيرة للتجارة بكل هذه الممتلكات المختلفة. فثبت الخزانة بالجدار، ومد بنكاً لإجراء الصفقات عليه، ووضع أقلام الحبر فى علبة، وأطقم المائدة، وقطع القماش الأمريكى التى كان تمثال الحرية مصوراً على كل منها، وملائكة فى الأركان تحمل صور مؤسس الاستقلال الأمريكى، وفى كل رقعة مربعة تطرين بالنجوم البيضاء والزرقاء - خمس سنوات طوال أخذ يجمع فيها هذه المجموعة، حتى يعود بها يوماً ما، ينتقى ما يخيل له أنّه أطرف الأشياء فى أعين الناس فى ناحيته، ولو أنه قد انتقاها من بين تلك البضائع المستعملة التى لا يدرى أحد من أين جاءت والتى تدور على السكان المهاجرين، واحداً بعد واحد.

وهكذا بدأ حياته عاملاً باليومية، وأصبح اليوم تاجراً فى مختلف البضائع. وكانت الخزانة هى التى أوحت له بهذه الفكرة، ولم يفتح دكاناً إلا لهذا السبب. وقد كان يحس نفسه ثرياً – تقريباً – لأن كل النقود التى فى جيبه عملة أجنبية، وستصبح أكثر، عندما يحولها إلى عملة إيطالية. وكانت الحسابات العقلية المتعلقة بهذه العمليات تستغرقه فى أغرب الأوقات. وكان يحس سروراً طفلياً عندما يلعب بالبلّورة الحمراء فى جيبه، بأصابعه. وأخذ ينظر إليها كما لو كانت طلسماً، وتعويذة. وأصبحت أحد تلك الاشياء التى لا فائدة منها والتى نعتزّ بها طول حياتنا، ولا نقوى أبداً على رميها، حتى تصبح فى النهاية جزءاً من أنفسنا، بل قطعاً متوارثة فى العائلة. هذا بينما تضيع الأشياء الهامة التى نعنى بها، ونخفيها حرصاً عليها. ولكن هذه الأشياء الأخرى التى لا قيمة لها لا تضيع أبدا، وتعود أذهاننا إليها بين الحين والآخر. مثال ذلك أن البلورة الحمراء ذكّرت صاحبنا المهاجر، بعد أيام قليلة، بذلك اليوم الذى أبحر فيه عائداً للوطن، وداخل التاكسى، والشوارع التى كانت تبدو كأنها تتدحرج وترتفع وتختفى، كأنها مناظر فى نهاية رواية مسرحية، ثم تصبح ذكريات نائية.

فتح دكانه فى الجزء العلوى من البلدة الريفية التى يسكنها الفلاحون ورعاة البهائم وبعد أسبوعين من وصوله كان قد أثث الدور الأرضى من كوخ أحد الفلاحين، ببنك طويل، وأرفف استقرت عليها باكوات خميرة الدقيق الزرقاء الغلاف، وأثواب الموسلين الأزرق الخاص بالسيدات. وقام فى أحد جوانب الدكان برميل من النبيذ، على دعائم خشبية، وجرّة من الفخار، للزيت. وثبتت الخزانة بالجدار،

فكان يحس بالفخر يملأ صدره عندما يفتحها فى حضور الزبائن. ووضع فيها دفتر حسابات، ودفتراً يحتوى قائمة بكل البضائع التى باعها، على أن يدفع ثمنها بعد المحصول، أو بعد أسواق البهائم. وأخذت الدكان بالتدريج تتخذ مظهر الدكاكين الأخرى جميعاً، وأصبحت لها رائحتها الخاصة، وكانت هناك على الجدار علامات بالطباشير من صنع زوجته - التى لا تعرف الكتابة - لتدل على البضائع التى باعتها هى بالشكُّ. إلا أن ابنه الصغير الذى كان يختلف إلى المدرسة، أصبح قادراً على كتابة أسماء الزبائن فى السجل، وكان أحيانا يجلس فى الدكان، فيديرها على أحسن الوجوه، فى بعض الأيام الحارة، بعد الظهر، عندما يكف كل بيع وشراء إلا فى المشروبات المثلوجة للسادة الذين يفوقون لأنفسهم من نَوْمة بعد الظهر.

أخذ الشبشب الأمريكانى الذى أتى به لامرأته يتكرمش بالتدريج، وأخذت هى تبدو، بالتدريج، بمظهر امرأة تاجر وصاحب دكان، مظهراً حويطاً حريصاً راضياً بالحال. ولم تبق إلا القبعة العالية الصلبة، تبدو جديدة تقريباً، فى الدولاب. أما رقع القماش الأمريكى فقد وزعت هدايا على الزبائن المهمين، أما أقلام الحبر فلم يكن لأحد رغبة فيها. وقد تناولها واحد بخشونة، ذات مرّة وظلت حطامها وبقاياها فى العلبة. وكان صاحب الدكان الذى ظل صبياً فى قرارة نفسه، يتخيل كثيراً أن أسنان الأقلام من الذهب الخالص، فظل يعتز بها كما يعتز الصبى الصغير بلفافات الشيكولاتة من الورق المفضض. وكان معتزاً كذلك بصحيفة قديمة مطبوعة بالإنجليزية، وظل متعلقاً بها، فرفض أن يفرط فيها حتى عندما كان يعوزه ورق

اللف. وكان يتفحصها أحيانا بعينيه، وعندئذ تذكره الصور فى الإعلانات، بالناس الذين كانوا يدخنون السجاير المذهبة الأطراف، والأولاد فى الشوارع، والجرامفونات، كل صور تلك الحياة التى رآها فى الأحياء الرئيسية من المدينة مرات زياراته القلائل لها. أما قطعة البلّور فقد تذكرها يوما وأعطاها ابنه الذى كان يحتفل بعيد ميلاده مع صحابه. وكان الأولاد فى تلك الأيام يلعبون لعبة تنحصر فى هدم قصور من حبات الجوز، والاستيلاء عليها، برميها بحبّةٍ ثقيلة. وكان المتبع أن تنتقى حبّة جوز كبيرة، ويثقب فيها ثقب دقيق صغير، ثم يستخرج اللب منها بالكشط قليلاً قليلاً، بصبر طويل، ثم تملأ حبّة الجوز بكريات صغيرة من الرصاص. وهنا جاءت قذيفة البلورة فى وقتها، فقد كان ثقلها بالضبط بحيث يتحقق الهدف منها. وقد كان أحد الصبية الآخرين يستخدم بلية زجاجية من النوع المستخرج من زجاجات الليموناده، وكانت ميزتها أنها مدورة تماما. لكن ابن صاحب الدكان كان يزعم أن بليته أحسن، لأنها جاءت من أمريكا، ولأنها حمراء. وكان يعتز بها اعتزاز الصبية بهذه الأشياء، فلا يضيعونها أبدا. وكان أبوه يتأمل هذا الشئ الطريف الذى أصبح الآن لعبة ابنه، فكان ذهنه يعود أحيانا إلى الأوهام التى طالما عمر بها خياله، فى أيام سفره حول العالم، وكان العالم عندئذ يبدو مليئاً بالأشياء الثمينة الضائعة التى يعثر عليها أصحاب الحظ الحسن. ولذلك فقد كان يتحسس بأصابعه دائماً تحت المراتب، فى سُرُر البواخر وخلف المقاعد الجلدية فى العربات والأتوبيسات، حيثما كان. لكنه لم يجد شيئاً أبدا. أجل، حدث ذات مرة أن وجد خمسة دولارات فى الشارع. وتذكر أن الدنيا كانت تمطر يومها.

نيكولا موسكارديللى

كان أول كتبه «أغنية روما» يعالج مجالى روما المختلفة، المقدس والعلمانى منها، والعتيق والحديث. ووصف الكتاب بأنه من «الصوفية الشاعرية». ولا يصعب الاهتداء إلى تلك النغمات الغنائية فى قصصه القصيرة – ومنها التى نختارها له – ولا تخفى فيها حساسيته الدقيقة المرهفة الانامل. فهو لا يعنى بالحبكة المتقنة، وعنصر الرواية فى قصصه أدنى أهمية من دراسة موقف أو شخصية، بل تطريزها.

«وجه القدر» هى مأساة صغيرة لبراءةٍ مخدوعة – دون ان تعى ببراءتها ولا بالخداع – والغدر مرموز بطبيب أخنّ يلهج بعباراته الريفية الوقع، ويلبس نظارة ذهبية الإطار من طراز قديم. والادوات التى يلعب بها القدر هى محبة أم، وسذاجة طفلة تسلم مصيرها الغضّ لمباضع لامعة، ولعينى أمها الواقيتين الفاهمتين المشاركتين – برغمها – فى مؤامرة ساذجة لا حول لها أمامها، تافهة وإن كانت حبلى بالدلالات.

ثم تنتهى لعبة القدر الصغيرة، بل وتنسى، ولكنها تترك ندبها الأول لجرح قاطع فى نفس كانت حتى تلك اللحظة صافية النسج، ناعمة الجلد. والندب الأول يرم ويلتئم، لكنه إرهاص بندوب الحياة المحتومة، وجراحاتها اللاحقة التى تخبئها للنفوس جميعا. وفى البتر الصغير الأول ترشيح للآلام المثخنة التى هى ميراث الحياة نفسه، بمجهولاتها. بأمنياتها النازعة أبداً نحو تحققٍ لا يدرى واحد على الإطلاق إلام ينتهى، وكيف تطلع عليه شمس غدٍ مأمولٍ لا ضمان فيه، ولا ضمانة له.

«وجـــه القـــدر»

«نيكولا موسكارديللى»

تردد الأبَوان كثيرا، فقد كانا ينتظران أن يقرآ فى صحف المساء أن التطعيم من الجدرى لم يعد ضروريا. ولكنهما أدركا أنه ينبغى أن يتخذا قرارهما، فى النهاية. فجمعا أشتات شجاعتهما - كانت حياتهما فعلاً هى ابنتهما الصغيرة -

ذهبا إلى الطبيب ليعدا الترتيبات اللازمة.

قال لهما الطبيب بصوته الأخن الذى يتميز به رجال الطب، هذا الصوت المدرب حتى لا ينم عن انفعالٍ ما:

- لا داعى إطلاقاً للقلق يا سيدتى. الآن، ما اليوم؟ الاثنين؟ عظيم. هاتِ البنت يوم الاربعاء، وانبوبتين من اللقاح وستظل الطفلة فى حالة عَادية طوال نهار الأربعاء وليله. ولكن راقبيها مع ذلك بعناية، على سبيل الاحتياط فحسب. ويوم الخميس بعد الظهر ترتفع حرارتها ارتفاعاً طفيفاً، وترتفع أيضاً أثناء الليل. وتظل عند حوالى مائة درجة يوم الجمعة بأكمله. وتنزل الحرارة يوم السبت. يوم الأحد بالكثير تعود تماماً للحالة الطبيعية. فلا داعى للقلق أبداً، كما ترين. نحن كل يوم نجرى مئات التطعيمات.

وأصغت الأم، خائفة قليلاً، تحدق فيه، دون أن يغيب نظرها عن بنتها التى كانت قد ذهبت إلى دولاب ذى واجهة زجاجية، وأخذت تحدق فى المباضع والمقابض والمشابك اللامعة، وقد سحرها بهاء هذه اللعب الباردة المصقولة. واستدار الطبيب لينظر إليها، وقال:

- لويزيللا سترجعين يوم الأربعاء هنا، مع ماما، وسأعطيك شيكولاتة. تعدينى أن ترجعي؟ أليس كذلك؟ فرفعت البنت عينيها إلى أمها فى ارتباك.

– قولي للدكتور «أشكرك» انظرى كم هو لطيف معك. قولى له إنك راجعة يوم الأربعاء.

فهتفت الطفلة: نعم!

وأخذتها الأم بين ذراعيها، وحيّت الطبيب، وخرجا.

ظلت لويزيللا هادئة يومها – كدأبها فى الأيام الأخرى– إلا أن شيئا كان الطبيب قد قاله، ظلّ يثير فيها الضيق والكرب معا. وكانت تنظر الآن إلى الشارع، إلى أولى قوانيس الشارع التى أوقدت، وكان خيالها البارع يبنى تخاييل طفليّة خلف وهج المصابيح، كما كان يبني من قبل خلف انعكاسات الأدوات الجراحية الفضية المغلق عليها فى الدولاب الزجاجي.

لكن سحابة طفيفة كانت معلقة حتى الآن فى ذهن أمها، وكانت تحتضن بنتها الرقيقة البريئة بعاطفة جديدة لم تكن تشعر بها من قبل.

فى المساء، عندما ذهبت معها لتضعها فى السرير، ظلت جالسة بجانبها، ترقبها وهى تنام. ورأت ظلال النوم، بفروقها الواضحة، تهبط واحدة بعد واحدة، كظلال طيور هاربة محلقة، لا تكاد تنبعث فى الوجه الصغير بتكمّش النعاس، ثم ينفتح الوجه بابتسامة سريعة ذاهبة، ولا يكاد يعتم عتمة خفيفة إذ تغمض عينيها وتنام. وذهبت ضيفاً فى عالم شدما يتباين عن العالم الذى خلّفته وراءها والذى ما زال أبواها يقطنانه. وقد كان يمكن أن تكون هى نفسها حلماً بين أحلامهما. ونهضت الأم، بغاية الهدوء، تكاد تحبس أنفاسها، كما لو كانت تخشى أن يتشتت «الحلم».

تسربت الشمس، فى الصباح التالى، بين الضُلَف، وهى تقوم

بذلك العمل كشخص يقوم بحراسة يومية صامتة، ورحبت بها الطفلة بصيحتها الفرحة المعتادة. ولم يكن فى ذاكرتها شئ من اليوم السابق، وبدا لها أن حياتها توشك أن تبدأ بداية جديدة، كل يوم. لكن أمها لم يطاوعها قلبها أن تبتسم كالمعتاد، إذ كانت سحابة المساء القادم تتزايد ثقلا، وتغيم على ضوء النهار. وعادت الطفلة مرة أخرى إلى عالم لُعَبها، فأخذت تثرثر لهم فى هدوء، دون توقف. وعندما قالت لها أمها، وهى خارجة لشراء أنبوبتى اللقاح، أنهما تخرجان لشراء حلوى، وثبت الطفلة مبتسمة، ورمت بذراعيها حول عنق أمها.

فى ظهر الأربعاء أخذتها أمها بين ذراعيها، كما لو كانت قد تذكرت. هى نفسها – الآن فقط. وذكّرتها بالشيكولاتة التى وعدها بها الدكتور. وكانت الأنبوبتان فى حقيبتها ،وفى قلبها خشية غير قليلة. وتركا البيت الذى كانت تدفئه أشعة الشمس، كما تدفئ السطوح والشوارع، ولكن لا دفء فى قلب الأم. وكانت تتعلق بها سحابة من شعور كالندم، لأنها تخدع براءة طفلتها، وتخونها. وكانت البنت تنظر لها، عند كل محطة يقف عندها الترام، كما لو كانت تذكرها بأنه ينبغى أن ينزلا، أما الأم فقد كانت تتمنى، من الناحية الأخرى، ألاّ يصلا أبداً – وطفقت تتمنى أن تأتى بضعة شوارع أخرى، حتى يتاح لها الوقت أن تقنع نفسها أن لا شئ هناك، لا شئ بالمرة.

وقبل أن يمسّها الطبيب أخذت الطفلة تصرخ. وكانت أمها تمسك بها، تقدم ذراعها الصغيرة الوردية للطبيب لكى يجرى عليها القطوع، وهى تقول إنه لا شئ هناك. وسقطت الشيكولاته من الطفلة، فى

محاولتها أن تتخلص وأن تفلت، ولكنها لم توفق. وما أن شعرت بنفسها بين يدى الطبيب الذى اتخذ الآن مظهراً غير محبوب بالمرة، بالرغم من كلماته الضاحكة، لم يقف بكاؤها عند حدّ. وكان يبدو أنها لم تعان من الآلم بقدر ما تعاني إحساساً بخيانة الثقة التى وضعتها فى هذين الكبيرين، فلم يحفظاها. ولم تستغرق المسألة بالطبع أكثر من بضع لحظات، وما إن وصلت البيت حتى استعادت هدوءها. فلعل ذلك حدث كما تحدث هذه الأمور فى الأحلام، لا تفسير له، ولكن لا أهمية له بعد ذلك. وجهدت الأم أن تنسيها هذه الحادثة، حتى كادت أن تقتنع بنتها إنها أيضاً قد خدعها الطبيب، وأنهما ذهبا للطبيب لأنه كان يبدو لطيفاً يحب الأطفال، والآن... من كان يصدق؟

ولكن بقى فى عين الطفلة ظل، أو شبهة تقريباً، لا يسهل تشتيتها. وسرعان ما بهت هذا الظل بعد ذلك، واختفى، وعاد سناء الشمس يسطع من جديد فى داخل ذهنها الذى استعاد سكينته وسلامته. كانت تجلس على الأرض أمام علبة ضخمة مليئة باللعب من كل الأنواع، وقد استغرقتها لعبتها تماماً، فنسيت كل ما عداها. ولكنها كانت تنشج بشبه بكاء بين الحين والحين، شهقة لا تتصل لا بالماضى ولا بالمستقبل. وكانت أمها التى تقف قريبة منها، ترقبها بعناية من أشعل فتيلة قنبلة وأخذ ينتظر انفجارها. أما الطفلة، وقد أفرخ رُوعها الآن، فقد كانت تسأل أسئلتها، كالمعتاد، عن كل ما يدور بأذهان الأطفال وحدهم من أمور مُحَالة غريبة.

- غدا

أجابتها أمها، وهى ترتعش قليلاً، وصوتها مغلف بالكذبة التى على شفتيها.

فرددت الطفلة بعدها:

- غدا.

وكانت عيناها لامعتين حتى أن أمها اقتربت منها، ومرت بيدها. كما لو كان ذلك قد جاء اتفاقا، على جبهة الطفلة لتحس ما إذا كانت قد ارتفعت حرارتها. مرّت ساعات بعد الظهر الهادئة، واحدة بعد الأخرى، ببطء. وكانت الطفلة تتحرك، فى كل ساعة، لتقترب من العالم المجهول الذي لم تكن تدرى عن وجوده شيئا، والذى كانت الأم تراه بوضوح، كما يرى المرء أعمى يقترب من حافة هوة. ودخل الليل فجأة، في غرفة النوم الصغيرة المؤثثة بأشياء دقيقة لا فائدة فيها، والمستضيئة بحياة ألف طيف من الجنيات الصغيرة دعاها إليها كائن على قرابة بها. هبط الليل وجُذب السرير الصغير الذى كانت تنام فيه البنت، إلى الخارج، ككل مساء، عندما أحست الأم بأرواح الحمى التى تحوم حول الطفلة، جاءت فى ميعاد لم يكن بالإمكان أن تتخلف عنه، والمصباح الذى يتقد كل ليلة سيتقد هذه الليلة، ككل الليالى، تقريبا. وعندما نامت بنتها الصغيرة، بقيت الأم طويلا تحدق فيها، كما لو كانت تحاول أن تعثر على اللحظة التى يبدأ فيها الصراع بين الجراثيم الخيرة والجراثيم الشريرة فى جسمها المسكين. وكانت الطفلة تتمتم كثيراً، خلال الليل، بكلمات غير مترابطة، فى نومها. ورفعت يديها الصغيرتين أكثر من مرة، كأنما لتحامى عن نفسها، تردّ غائلة شئ أو شخص.

وفى الصباح التالى لم تتلق الشمس صيحة الترحيب المألوفة، ونامت الطفلة، كزهرة لذعها الصقيع فى سريرها، تريح وجنتها المشتعلة على المخدة، وجفناها مسبلان على عينيها المُتَمدِّتَيْن بالحمى، تحقق تشخيص الطبيب، خطوة، فخطوة، فظلت حرارتها ترتفع

طوال اليوم. ويوم الجمعة ظلت مرتفعة من أول الصبح حتى آخر الليل، كما تنبأ الطبيب بالضبط ويوم السبت صباحاً لم يعد لها أثر تقريباً. وتغلبت الطفلة على الحمى يوم الأحد. وكان بوسعها أن تنهض يوم الاثنين، دون أن تتذكر إطلاقاً شيئاً من المرض الذى اجتازته، واستأنفت حديثها الذى أنقطع مع أصدقائها الصغار المصنوعين من شعر الخيل والورق المقوى.

وكانت أمها تشعر بنفسها تعانى دواراً خفيفاً، من مشقّة مراقبة كل مرحلة من مراحل تشخيص الطبيب. كان قد حسب حساب كل شئ، بدقة تروس الساعة، باليوم، بالساعة، حتى هبوط الحرارة والشفاء النهائى. ولكن الطفلة، حتى عندما كانت قدماها على حافة الحمى، كانت تردد كلمة غداً فى سلام وسكينة، وقد أَمِنت تماماً، وسَعِدت. وسقطت فى الهوة، غير واعية بشئ إطلاقاً، وبابتسامة على شفتيها.

وبينما كانت أمها تجلس إلى حافة المائدة:، تدفن وجهها بين راحتى يديها، كانت تواجه اللغز، كشخص مبصر بإزاء أعمى، لكنها أيضاً كانت تحس بنفسها عمياء، وقد اختلط عليها الأمر، غير عارفة، على حافة هوة مجهولةٍ ما. تقف معها كل الكائنات المخلوقة التى تقول «غدا» دونَ أن تعرف أبداً ما إذا كان الغد سيشرق عليها. ورأت، كما ترى فى المرآة، المصائر الإنسانية تنسجها يد غير مرئية، وسمعت ساعة تدق، فى جلال، تأتى بأحزانها المظلمة، أو أفراحها غير المنتظرة.

وكانت الأم والبنت صامتتين هنيهة فى الغرفة الصغيرة. ثم أخذت الطفلة تؤرجح دُميتها، واستأنفت خيط حياتها البسيط الذى لا تعقيد فيه.

وعادت الأم بذهنها إلى الطبيب، وأحست أنها كانت أمام القدر وجهاً لوجه. وكان يرتدى نظارة ذهبية من نوع لم يعد شائع الاستعمال اليوم، وله لحية خشنة ضاربة إلى الاحمرار، ويتكلم بلهجة صقليّة خفيفة.

جيوفانى پاپينى:

ولد في فلورنسا سنة ١٨٨١. وقضى معظم حياته فيها، إلا أنه في كثير من النواحى من أكثر الأدباء الإيطاليين اهتماماً بالمشاكل العالمية التى تعدو نطاق الإقليمية. وقد اعتنق الكاثوليكية قبيل كتابته «قصة المسيح» في سنة ١٩٢١. ثم أصدر كتابه «الشيطان» الذى أثار الدوائر الكاثوليكية، وحظر البابا قراءته على المؤمنين.

وقد ارتبطت أعماله بالصحف الذائعة الصيت فى فجر نشاطه الأدبى، واسترعى الانتباه، قبل الحرب العالمية الأولى، كتابه «رجل منتهٍ» حيث يبدو فيه جزءه من العمى، وهو جزءٌ أصبح حقيقة واقعة، بالتقريب، فى سنة ١٩٣٥. وبالرغم من ذلك، وبالرغم من عاهةٍ فى ذراعه اليمنى، فقد واصل عمله فى الكتابة النشيطة التى لا تهن ولا تخور.

وأكثر اهتمامه بالمسائل الانسانية القائمة ابداً، لكن الجانب الشاعرى الخفيف من موهبته الخلاقة يبدو فى مجموعات قصصه القصيرة.

وتنعكس فى القصة التى نختارها له أطياف بعيدة لاهتمامه بالثيولوجيات والتخاييل، وإحساسه مع ذلك بعنصر فاجع لا مفرّ منه فى رغبات الإنسان المحكوم عليه حتماً بالفناء، وقبل ذلك بالشيخوخة وذبول الشباب، وفى نزوعه الدائم إلى المتعة، والازدهار، برغم التجاعيد فى وجهه، والتجاعيد التى يتقبض بها نسيج روحه الداخلى أيضاً، وفى هبوط المقضى عليه فى النهاية، إذ تتساقط بين أصابعه المرتعشة بالاشتهاء، أوراق حياته الذاوية الميتة.

«اليوم الذى لم يُستردّ»

«جيوفـــانى پاپينـــى»

لي، من بين معارفي، كثير من الأميرات اللاتى تقدمت بهن السن وإن لم تنل من جمالهن. ولكنهن يعشن فى ضائقةٍ مالية، حتى ليغبطن أنفسهن إذا استطعن إلحاق خادمة، ترتدى حلة رسمية سوداء، ببيوتهن. وقد دفعتهنّ الحاجة إلى سكنى ڤيلات متداعية في توسكاني مثلاً، في إحدى تلك البلاد القاصية، تقف للحراسة على بابها المنقور في السور، سروتان يعلوهما الغبار.

فإذا صادفت أحد أفراد هذه الفصيلة فى صالون كونتيسة أرملة قد خلّفتها الأيام وراءها، فعليك أن توجه إليها الحديث بوصفها «صاحبة السمو»، وأن تتكلم بتلك الفرنسية التى تنتمى إلى الطراز الدولي،الكلاسيكى، الذى لا لون له، فرنسية «القصص الأخلاقية» للأب مارمونتيل، أى فرنسية الطبقة الراقية. وسوف تجيبك هاته الاميرات، بلا شك تقريباً، فى إسهابٍ محبب دمث، مادمت قد سلكت سبيلك إلى قلوبهن البائسة المليئة بالتراب وبفضول الحواشي، كأنها خُطَب القرن السابع عشر، وسوف تجد عندئذ أن الحياة، حتى على هذ النمط، يمكن أن تكون مقبولة، وأن أمهاتنا لم يكنّ بما يبدو من الغباء لأنهن أتين بنا إلى هذا العالم.

وكم من أسرار غريبة همست بها أميراتى الشيخات الجميلات، فى أذني! كنّ لا يفتأن يذررن البودرة على وجوههنّ، فهنّ يعشقن ذلك، ويعشقن أكثر من ذلك أن ينطلقن فى ثرثرةٍ طويلة ذات شجون، بلا هدف ما. وهنّ ألمانيات الأصل جميعاً إلا واحدة من أصلٍ روسيّ، كما لو كان ذلك قد جاء عَرَضا، ولكن فرنسيّتهن الممتعة التى ترجع للعهد الملكى القديم مسّت نفسى أكثر من مرة. وقد ذاب قلبي، فى مثل تلك اللحظات، وكان من الممكن عندئذ أن أروح أصعّد التنهدات

والزفرات، كما لو كنت فتىً عاشقاً أضواه الهيام.

كنت ذات مساء، ولم يتأخر الوقت بعد، في غرفة استقبال بإحدى القيلات في توسكاني. وكنت جالساً في مقعدٍ مريح من طراز الامبراطورية، بالقرب من المائدة، وأكواب الشاي الخفيف تنهال عليّ، وأنا أشارك إحدى أميراتي الصمت. وكانت من أروع أميراتي جمالا وأكثرهن طعوناً في السن.

كانت ترتدي السواد. وكان وجهها مغطى بقناع أسود خفيف. وكان شعرها، وقد كنت أعرف انه أشيب وإن كان مازال فيه شئ من التموج الطفيف، مغطىً بقبعتها السوداء. وثمة هالة سوداء تحيط بها، فتحيرني وتأسرني، وتكاد تغريني بأن هذه السيدة ليست إلا شبحاً لم تظهره إلا إرادتي وحدها. ولم يكن في ذلك من الغرابة بقدر ما يبدو، فقد كان الغرفة معتمة جداً، ولم تكن الشمعة الوحيدة تمدّ وهجها فيما وراء وجهها المذرور بالبودرة. أما كل شئ فيما عدا ذلك فقد كان يندغم في العتمة، حتى خيل لي أنني أرى رأساً مهتزاً، وحده، أمامي، ووجهاً منفصلاً عن جسمه، يطفو على بُعد مترٍ واحد من الأرض.

لكن الأميرة كانت قد بدأت تتكلم، فتبددّتْ بذلك كل تلك الأوهام. وقالت، بالفرنسية:

– يا سيدي، أصغ إليّ. حدث لي منذ أربعين عاماً، عندما كنت من غضوضة السن ما كان يتيح لي الحق في أن أبدو بما يروق لي من مظاهر الحماقة والجنون...

وأخذت تروي لي، بصوتها الجذاب، إحدى قصصها الغرامية التي لاعداد لها. وقد استحال أحد الچنرالات الفرنسيين، في تلك القصة،

ممثلاً، من أجلها، وقتله فلاح مجنون ذات ليلة.

وكنت قد ألفت منها شطحات الخيال هذه، وكنت أصبو إلى سماع شئ آخر، أكثر إغراقا في الخيال، وأكثر بعداً عن الواقع وإمعاناً في الغرابة. ورضيت الاميرة، في النهاية، بأن تلبي طلبي. وقالت:

– أنت تدفعني إذن لأن أخبرك بسرّي الأخير، سرّي الذي لم أفشه لأحد حتى الآن، إذ هو أغرب من أن يُصدَّق. ولكني أعرف إنني سأموت في خلال شهور قليلة، قبل أن ينقضي الشتاء، ولست أظن أنني سأجد من تشوقه كل هذه التفاهات خيراً منك.

يعود هذا السر إلى العهد الذي كنت فيه في الثانية والعشرين من عمري، كنت عندئذ أروع أميرات ڤيينا جمالا، ولم أكن بعد قد قضيت على زوجي الأول. فقد حدث ذلك فيما بعد، بعد سنتين. وكنت قد بدأت عندئذ في الواقع أهيم حباً بـ... ولكن فلندع ذلك الآن! حدث إذن في نهاية السنة الثانية والعشرين من عمري أن تلقيت زيارة من سيد كهل، حليق الذقن، يضع على سترته نياشين كثيرة. وطلب مني أن أنفرد به خاصة لمدة دقيقتين. وعندما أجبته إلى طلبه قال: إن لي ابنة أعبدها، وهي مريضة في اللحظة الراهنة. ويتحتم عليّ بأي شكل، أن أمنحها حياةً جديدة، وقوة جديدة. ولذلك فعليّ أن أشتري لها، أو اقترض لها، بضع سنوات من الشباب. فإذا تكرمت بأن تعطيني سنة واحدة من حياتك، فسوف أردها إليك شيئا فشيئا، يوماً بيوم، قبل أن تنتهي أيامك. فعندما تستكملين سنتك الثانية والعشرين، ستجدين نفسك، بدلاً من الانتقال إلى السنة الثالثة والعشرين، قد أصبحت أكبر عمراً بسنة واحدة، فتبدأين سنتك

الرابعة والعشرين. وانت ما زلت غضة السن جدا، ولن تكادى تشعرين بتلك الوثبة فى الزمن. ولكنى سأرد اليك، فى النهاية أيامك الثلاثمائة والخمسة والستين بأكملها، يومين أو ثلاثة في كل مرة، وعندما تتقدم بك السن، سيكون بوسعك أن تطالبى، كلما عنّ لك ببضع ساعات ثمينة من الشباب الحقيقى، حيث تعود إليك، على غير انتظار، الصحة والجمال. ولا يدخلنّ بالك أنك تكلمين مجنوناً أو أحمق، فلست إلا أباً بائساً وقد صلّيت إلى الرب وتضرعت إليه، فمنحنى القوة أن أُعطَى مالم يُعط لآخر. وقد جمعت ثلاث سنوات لبنتي، بمجهود كبير، ولكنى مازلت بحاجة إلى بضع سنوات أخرى. أعطنى سنة من حياتك، ولن تندمى قط.

ولم أكن فى تلك الايام غريبةً عن المغامرات الطريفة، ولم يكن ثمة ما يعدّ مستحيلاً فى ذلك المجتمع الامبراطورى الذى كنت أعيش فيه. ولذلك رضيت بأن أعقد هذا القرض الغريب. وبعد بضعة أيام، تقدم بى العمر سنةً كاملة. ولم يلحظ أحد شيئاً على الإطلاق. وعشت حتى بلغت الأربعين، حياة سعيدة، دون الالتجاء إلى تلك السنة التى أعطيتها على سبيل الوديعة، على أن تستردّ فيما بعد.

وكان السيد الكهل قد ترك لى عنوانه، مع العقد، وطلب منى أن أكتب له شهراً على الاقل قبل الميعاد، كلما أردت يوماً أو أسبوعاً من الشباب. وقد قطع على نفسه العهد أننى سأتلقى كل ما أطلب من ذلك، فى الميعاد المضروب.

وعندما انقضت السنة الأربعون من حياتى، وأخذ جمالى يذوى، اعتكفت بعيداً عن العالم فى إحدى القلاع القليلة التى بقيت للعائلة، ولم أكن أذهب إلى ڤيينا اكثر من مرتين أو ثلاثاً فى السنة. فكنت

أكتب أولاً إلى مدينى، ثم انطلق إلى حفلات البلاط الراقصة، فى صالونات العاصمة، يافعة السن جميلة، كما كنت فى الثالثة والعشرين، حتى دهش كل من كان قد عرف انحدار جمالى إلى الذبول.

كم كانت غريبة تلك الليالى قبل عودتى إلى الظهور! كان يأخذنى النوم، مجهدة، ذابلة، ثم أصحو فى الصباح مرحة طائرة اللب من الفرح، كعصفور لم يكد يتعلم الطيران، ثم أجرى إلى المرآة، وقد اختفت كل الغضون من وجهى، وعاد جسمى طرياً لدنا، واستعاد شعرى شُقْرته، وشفتاى لونهما القانى حتى لأكاد أن أقبلهما أنا نفسى، فى وَلَه.

كان المعجبون بى فى ڤيينا يفقدون رشدهم من الهيام بى، كل بدوره، ويعجبون للمعجزة، وكانوا يتهموننى بالسحر، ولم يكن بوسعهم بالفعل أن يدركوا شيئاً مما يحدث. ولا تكاد فترة الشباب التى طلبتها تنقضى، حتى أكون قد أخذت عربتى، وعدت إلى القلعة على عجل، حيث كنت أرفض الزيارات بلا استثناء. وفى مرة من المرات، كان كونت شاب من بوهيميا قد هام بى وَجْداً، فى إحدى زياراتى لڤيينا، واستطاع أن ينفذ، بشكلٍ ما، إلى الجناح الذى كنت أشغله فى فى القلعة. وعندئذٍ أغمى عليه تقريباً من الدهشة إذ رأى كيف كنت أشبه حبيبته، وكيف كنت مع ذلك ذابلة، وقد رثّ شبابى، بالقياس إلى تلك التى أسرت لبهّ فى شوارع ڤيينا.

لكن أحداً لم يستطع أبداً بعد ذلك أن يقطع علىّ عزلتى المختارة التى لم تكن تومض فيها إلا تلك البهجة الغريبة، والكآبة العميقة، التى امتازت بها فترات الشباب النادرة، فى انحدارى الفاجع الذى

لم يكن شئ ليوقفه نحو الشيخوخة. حاولْ أن تتصور الحياة الغريبة التى كنت أحياها. شهوراً طويلة من الشيخوخة الموحشة تدفئها نيران سرعان ما تخبو لأيامٍ قلائل ثمينة من الجمال والهوى.

وقد كانت تلك الأيام الثلاثمائة والخمسة والستون، فى أول الأمر، تبدو زاداً لا ينفد، وخيل لى أنها لن تنتهى قط. فأسرفت فى تبذير كنزى، وأكثرت من مطالبة مدينى الغريب. لكنه كان دقيقاً كل الدقة، بشكل مخيف. وقد ذهبت مرة إلى بيته ورأيت دفاتر حساباته. فلم أكن الوحيدة التى عقدت معه عقداً من هذا النوع، وأدركت كيف كان يراجع ديونه بغاية التدقيق. ورأيت بنته ايضاً، امرأةٌ شديدة الشحوب، تجلس على الشرفة تحيط بها الزهور.

ولم أستطع قط أن أكتشف طريقته فى الحصول على الحياة التى كان يردها، على الفور، أقساطاً يومية، وإن كان لدىّ ما يدعو للظن بأنه كان يعقد قروضاً جديدة. كيف كان حال النساء اللاتى أعطينه تلك الأيام التى كان يردها لى؟ كم كنت أحب أن ألقى إحداهن، لكنى بالرغم من أسئلتى الكثيرة الملتوية الماكرة، لم يقع فى حظى ان أعثر على واحدةٍ منهن. ولعلهن لسن من الغرابة بقدر ما أظن...

وكيفما نظرت إلى المسألة، فإن هذا الرجل شائق إلى حدٍ غير مألوف، وموفق كل التوفيق فى حساباته. ولن تستطيع أن تتصور كيف أصبحت حياتى مروّعة، إذ أعلننى ذات يوم، فى هدوء أصحاب البنوك، إنه لم يبق لى إلا أحد عشر يوما. ولم أطالبه، خلال تلك السنة بأكملها، بيومٍ واحد. بل كادت تغرينى فكرة أنْ أمنحه الأحد عشر يوماً هدية، حتى أضع نهاية لعذابى. ويوسعك ان تفهم السبب. ففى كل مرة كنت استرد فيها شبابى، كانت لحظة اليقظة أفعل

عذابا. إذ أخذت الشقة تزداد، بمرور الزمن، بين حالتى العادية، وبين حالى فى الثالثة والعشرين من عمرى. ولم يكن بمقدورى المقاومة. كيف تتصور أن امرأةً عجوزاً وحيدةً تعسة بُوسعها أن ترفض مهلة يوم أو يومين من الجمال والحب، من الفتنة والبهجة، إذ تسنح لها الفرصة؟ أن تكون محبوبة يوماً واحداً، مُشتهاةً لساعة واحدة، سعيدة لحظة واحدة! لكنّ السن لم تتقدم بك بما تدرك معه مثل هذه النشوة!

لكن احتياطىّ الايام قد استُنفد الآن تقريبا، وحسابى على وشك أن يغلق، حتى الأبد! تصور! يوماً واحداً فقط أطالب به، ثم أمسى عجوزاً إلى الأبد، مقضياً علىّ بالموت. يوماً واحداً من الضوء، ثم يأتى الظلام الأبدى!، اعتبرْ، أرجوك،كل مأساة حياتى غير المنتظرة... وقبل أن أطالب بذلك اليوم...

متى أطالب به؟ وماذا أفعل به؟ إننى لم أظهر فى ڤيينا، فى قناع شبابى، منذ أكثر من ثلاث سنوات. ولم يعد أحد يذكرنى تقريباً. وسوف يبدو جمالى شبحاً من الماضى. لكنىّ أتوق إلى عاشق، عاشق لا تردعه الاعتبارات السخيفة، عاشق مضطرم بالهوى. أتوق لأن يحتضننى أحد، مرةً اخرى. وسوف يصبح هذا الوجه المغضن طرياً مورداً مرة اخرى، وتشرب شفتاى من النشوة، للمرة الاخيرة. شفتاى البائستان المشققتان وقد نضب الدم منهما! كم تشتهيان أن تعودا قانيتين مرة أخرى ودافئتين يوماً آخر أيضاً، يوماً واحداً فقط، للعاشق الأخير، للقبلة الأخيرة!

لكنى لا أستطيع أن اعقد عزمى. ليست لدى القوة لانفاق تلك العملة الصغيرة الأخيرة من الحياة الحقيقية الباقية لى. ولا أعرف

كيف أفقها، وبي مع ذلك رغبة مجنونة في أن أنفقها...

الأميرة البائسة العزيزة! وقد رفعت الآن قناعها الخفيف، وشقت دموعها خطوطاً رقيقة في خديها المذرورين بالبودرة. وقد غصت بدموعها، لكنها حبستها، فقد كانت أكثر أرستقراطية وأكرم محتداً من أن تطلق العنان لعاطفتها، فحالت الدموع دونها ومواصلة الحديث.. وعندئذ أحسست بحافز لا يقاوم في أن أسكّن من روع هذه السيدة العجوز الفاتنة، مهما كان الثمن، وركعت تحت قدميها. اجل، تحت قدمي أميرة مغضنة الوجه ترتدي السواد. وأخبرتها إنني أحببتها اكثر من أي سيد آخر هام بها حباً في أي وقت مضى، وضرعت لها، بأكثر ألفاظي المعسولة غواية أن تمنحني، أنا وحدي، يومها الأخير من الشباب الباهر.

لست أذكر بالضبط كل ما قلته، ولكن كلماتي لا شك مسّت قلبها، فقد وعدتني، وإن كان ذلك في لغةٍ مسرحية، بأن اكون عاشقها الأخير ليوم واحد، بعد شهر من ذلك التاريخ. وحددت يوماً، في نفس الڤيلا. وغادرتها في أشد الاضطراب، بعد أن قبلت يديها الرقيقتين البيضاوين.

وفي طريق عودتي إلى المدينة، في ضوء الهلال البازغ، أطلقت العنان لامتحان نفسي امتحاناً صارماً، وتكشُّف دوافعي ومنازعي، في نوع من الشفقة الساخرة المفتعلة. ولكني كنت أحفظ قدر أميرتي بأكثر مما يتيح لي أن أصدّق كلمة واحدة من روايتها.

ومرّ هذا الشهر طويلاً لا ينقضي، أطول شهر في حياتي. وقد كنت وعدت حبيبتي المستقبلة بألاّ آتي أطلبها إلا في نهاية اليوم الموعود، واحتفظت بوعدي، وجاء اليوم، بالرغم من كل شيء، أطول

يوم في ذلك الشهر الطويل. أتى المساء أخيراً، وبعد أن اتخذت هندامي، كأحسن ما أستطيع، اقتربت من الڤيللا، بقلب خافق، بخطوات مترددة.

رأيت على البعد أن النوافذ مضاءةً كلها، على نحوٍ لم أعهده أبداً من قبل. ورأيت البوابة مفتوحة عند اقترابي، والشرفة مزدانة بزهور ضخمة. ودخلت الڤيللا، ومررت بغرفة الاستقبال حيث كانت الشموع كلها مضاءة في شمعدانين غريبين.

دُعيت للانتظار، فانتظرت. ولم يأت أحد. وكان البيت كله ساكناً الآن، لا نأمة ولا حسّ. وكانت الأنوار ما تزال تضطرم، والأزهار تنفث عبقها في الوحدة. وبعد ساعة من الانتظار والتوتر لم أطق كبح جماح نفسي، فدخلت غرفة الطعام.

كانت المائدة معدةً لشخصين محملة بصنوفٍ من الأطعمة والفواكة والأزهار. ونفذت إلى صالون صغير يشيع فيه ضوء خافت، مهجور. ثم أتيت أخيراً إلى باب كنت أعرف أنه باب غرفة نوم الأميرة. فطرقتُه مرتين أو ثلاثاً، لكنى لم أتلق ردا. فظننت أن للعاشق الحق فى امتيازات خاصة، وانّ لى أن استغنى الآن عن الاتيكيت المألوف، واستجمعت شجاعتى وفتحت الباب. وتوقفت على العتبة.

كانت الغرفة غارقة فى فيض من الملابس الباذخة، منثورة فى كل مكان، كما لو كانت فى إثر نوبة غاضبة من النهب والسلب، وكانت أربعة شمعدانات تلقى ضوءاً قوياً غير ثابت. وكانت الأميرة، ترقد بطولها على كرسى مريح أمام المرآة، ترتدى رداءً من أكثر أردية المساء التى رأيتها فى حياتى فخامة وترفاً. وناديتها فلم تجب. فاقتربت، ولمستها فلم تتحرك. وعندئذٍ لاحظت أن وجهها هو نفس

الوجه الذى طالما رأيته، أصغر، وأكثر حزناً عن المألوف، وبه شئ من الذعر. ووضعت يدى على شفتيها فلم أحس بنَفَسها – ووضعت يدى على صدرها لكن قلبها لم يكن يخفق. كانت الأميرة البائسة قد ماتت

ماتت في هدوء، على غرة، وهى تنتظر أمام المرآة عودة جمالها.

ووجدت خطاباً على الأرض بجانبها، يفسرّ سر نهايتها غير المنتظرة. وقد كانت به بضعة سطور مكتوبة بخط عسكرى منتصب:

«أميرتى العزيزة

لشدّ ما يؤسفنى أنه ليس باستطاعتى أن أردّ لك على الفور ذلك اليوم الأخير من الشباب الذى أدين لك به. فلست أستطيع أن أجد اليوم نساءً من الذكاء بحيث يصدّقن وعودى الغريبة. وابنتى فى خطر.

إننى أقوم بمحاولات أخرى، وسوف أنبئك بالنتائج، فأنت تعرفين رغبتى المخلصة فى إرضائك حتى النهاية. وأرجو يا أميرتى المبجلة، أن تصددّقينى.

المخلص...»

وكان الإمضاء غير موجود.

لويجى پيراندللو

ليس پيراندللو بحاجة إلى التعريف. وقد كانت حياته، قبل أن يعين فى الأكادمية الايطالية، وقبل ان يحصل على جائزة «نوبل»، حياة موجعة تحيط بها الفواجع وتتعقب أيامه ولياليه دون مهلة، فالفقر والجنون ومحاولات الانتحار والمرض ودخول الدير والموت والعاهات والفظاظة والوقوع فى الأسر، كلها صاحبته ورافقته بين أفراد أسرته الحميمة. وقد كان يعمل مدرساً للأدب فى معهد الدراسات العليا بروما.

وكتب إلى جانب قصصه القصيرة التى تزيد على الأربعمائة، نحو عشر روايات، وله فصوله النقدية الكثيرة. وأروع أعماله بالطبع هى مسرحياته الأربعون التى تقف صروحاً شامخة، تدور فيها قصة حياة الإنسان. وهى وإن كانت كوميديات إلا انها ليست مسلّية!

«إن لبعض الكتاب شعوراً أعمق باحتياج روحى لا يدعهم يقتنعون بالصور والأحداث والمشاهد، فلا يقفون عند معنى محدد خاص من معانى الحياة. ولهم نزعة أقرب إلى أن تكون فلسفية. وأنا لسوء الحظ من هؤلاء - من هؤلاء الذين يبحثون فى الصورة المحسوسة التى يجب أن تبقى حية تتمتع بكل حريتها الخاصة، إنما يبحثون فى صميمها عن معنى آخر يكسبها قيمة ومغزى»

فهذا الانتاج الضخم إذن بحث مستمر لاستجلاء الدلالات. وپيراندللو سيّدٌ لا منازع من سادة فنه، أو فنونه جميعاً.

أصداء الفواجع التى عجنت بها حياته نفسها هى أصداء الفاجعة الإنسانية الكلية، ولكن له فيها بسماته، وأفراحه، وعزاؤه، ورفقه بالإنسان ورحمته بضعفه، وله نشدانه الذى لا يفتر للقيمة، والمعنى.

وعبثاً أن نجمع شتات مقومات أعماله فى عبارات قصيرة، مهما كانت موحية. فهو من الشيكسبيريّين القلائل الذين تكاد تمتد أجنحتهم العريضة على كل أطراف المسرح الإنسانى، فيطوون تحتها كل أصناف الشخوص، والمواقف.

ووراء براعته الفنية الفائقة حدُوسه المستبصرة الوضاءة النافذة، ومع نضوجه الشيخىّ الجليل شاعرية غنية رقراقة.

وقد أخذت له قصتين، لاتمثلان عَمَله كلّه قطعاً، وإنما ليتبين فيهما فقط بضع من جوانب سيادته الفنية.

ليست «جنون القمر» مجرد حكاية طريفة عن الريف الإيطالى، بل لها صلة بتلك القوى الغائرة فى عمق الطبيعة حتى لتوشك أن تصبح غيبية، وحتى تعود فتحس بالسحر الأسطورى البدائى والألغاز الرئيسية الجوهرية التى تنبع عن النفس وموقفها من العالم، تلك القوى الغامضة المظلمة التى ألّهها الناس حينا، وما تزال تتمتع فى كوامنهم بسطوة الآلهة.

وفى وسط الأزمة الكونية تجرى نزوعات الناس الصغيرة مجراها الصغير المألوف، وتنعقد بها مسخرة موقفهم المعتاد.

«الليل» قصيدة أخرى، أبياتها من الأمانى المبسوطة، والمصائر المتحيرّة، والعزاء الكونىّ.

«الليـــــل»

لويجـــي پيراندِللـــو»

مرّ القطار بمحطة سولمونا، وبقى سيلڤيسترو نولى وحده فى تلك العربة الحقيرة من عربات الدرجة الثانية.

ألقى بنظرة أخيرة نحو الشعلة المدخّنة المرتجفة التى تكاد تطفئها، عند كل هزة من هزات القطار، قطرات الزيت التى تسقط فتكدر زجاج الوقاية المحدب المحيط بها. ثم أغمض عينيه، مؤملا أن ينام بعد هذه الرحلة الطويلة المجهدة (فقد كان الرجل يسافر منذ يوم وليلة)، فينزع عنه هذا المضض الذى يكاد يخنقه، ويتزايد وطؤه عليه، كلما اقترب القطار من منتهاه.

أبداً! أبداً! منذ كم من الوقت كانت عجلات القطار رتيبة الوقع تردد فى أذنه هذه الكلمة، طول الليل؟

انتهت، انتهت إلى الابد حياة شبابه المرحة بين رفقائه خليّ البال، تحت الأقباء المزدحمة، فى «تورينو» الحبيبة، انتهت هذه الأنفاس الدافئة المألوفة التى يهب بها بيتهم القديم، انتهت، ما كانت تكفله له أمُّه من رعاية ومحبة وذلك الحب الباسم فى نظرة أبيه الواقية!

لعله لن يراهما بعد الآن ابداً، هذين الشيخين الحبيبين. أمّه، أمه، على الأخص. آه! كيف وجدها بعد سبع سنوات من الغيبة، محنيّة الظهر، ومقدّدة، يحيط بفمها الفاغر من أسنانه شحوب كشحوب الشمع. ولم تبق إلا العينان، بحيويتهما. هاتان العينان المسكينتان الطاهرتان الحلوتان!

كان ينظر إلى أمه، وينظر إلى أبيه ويصغى لحديثهما، ويلفّ بحجرات البيت، ينقب فى كل شىء، فأحس أن الحياة فى بيت أبويه قد تغيرت بالنسبة له وحده. ومنذ رحيله، من سبع سنوات. توقفت

الحياة هنا، وازدادت دُكْنتها أيضاً.

أخذها معه إذن! وماذا فعل بها؟ أين اختفت هذه الحياة التى لم تعد تنبض فيه؟ ربما ظن الأخرون أنه أخذها معه، لكنه هو، يعرف بالعكس أنه خلفها وراءه، عند رحيله، وهو لم يعد يجدها الآن، ويقرّ بأنه لن يستطيع أن يجدها بعد الآن، إذن فقد حمل معه كل شئ. وعندئذ أحس فى هذا الخواء، رجفةً عميقة.

بهذا القلق الذى يخنق قلبه، عاد إلى محل وظيفته، عند نهاية إجازة الخمسة عشر يوماً التى صرح له بها مدير المدرسة الثانوية للبنين فى مدينة سانت انجلو، حيث يعلم الرسم، منذ خمس سنوات.

وقد كان قبل ذلك أستاذاً في كالابريه، سنةً، وفى بازليكاتا، سنةً اخرى. اما فى سانت انجلو، وقد هزمته، وأعمته، حاجته الكاوية الجنونية لعطفٍ يملأ الفراغ الذى يحس نفسه ضائعاً فيه، فقد اقترف حماقة الزواج، فربط نفسه إلى الأبد بتلك البلدة.

فقد ولدت امرأته، ونشأت فى هذه البلدة الصغيرة الجبلية الرطبة، المحرومة من كل الرفاهيات، بين الانحيازات والتعصبات الصغيرة الضيقة العمياء، والتفاهات وغرابات المزاج، وانسياب الحياة الرتيبة الخاملة فى الريف: وبدلاً من ان تغدو زميلة ورفيقة كانت تزيد من مضضه وحدته، بأن تشعره فى كل لحظة، بمدى غربته عن هذه العائلة التى كان ينبغى لها ان تكون عائلته، والتى لم يُتَح فيها لأية فكرة من أفكاره، ولأى شعور من مشاعره أن ينفذ إليها أبداً.

ولد له طفل، وشعر ـ شعوراً فظيعاً بشعاً – بأن هذا الصغير أيضاً، من أول يوم، غريب عنه، كما لو لم يكن ينتمى إلا إلى أمه وحدها.

ربما أصبح الطفل ولده. حقاً لو أنه استطاع انتزاعه من هذا البيت، من هذا البلد، وربما أصبحت زوجته نفسها زميلة حقاً عندئذ، ولعله يعرف عندئذ بهجة أن يكون له بيته ومقره، لو أنه استطاع أن يطلب نقله من البلد، وأن يجاب مطلبه، ولكنه كان مقضياً عليه ألاّ يأمل في هذا الخلاص، إذ أن زوجته - التي لم تشأ أن تغير بلدها حتى في رحلة صغيرة في شهر العسل، حتى لكي تتعرف إلى أمه وأبيه وأقاربه في تورينو - قد هددت بأنها تهجره، ولكن لا تهجر أهلها.

ومن ثم فقد كان ينبغي أن يبقى، وينتظر، في هذه الوحدة المخيفة، أن تستنيم روحه إلى خمول كثيف.

وكم كان يحب المسرح، والموسيقى، والفنون جميعاً! لم يكن ليعرف ان يتكلم عن شئ آخر، ولذلك فقد ظل دائماً يهيجه هذا العطش الذي يحرقه، كعطشه أيضاً إلى قدح من الماء النقي. لا! إنه لا يستطيع أن يشرب من هذا الماء الثقيل البارد، الرمليّ، ماء الآبار. وهم يقولون هنا إنه غير ضار، لكنه يعاني، منذ وقت ليس بالقليل، من آلام المعدة. أوهام؟ نعم. حتى السخرية أيضاً، علاوة على كل شيء!

لم يستطيع جفناه المغمضان أن يحتجزا الدموع التي فاضت بهما. وعض على شفتيه، حتى يحول دون انبعاث شهقاته أيضاً. وأخرج منديله من جيبه.

لم يكن ليظن أن وجهه قد غطاه الدخان من رحلته الطويلة، وعندما رأى المنديل أحنقته وغاظته وصماتُ دموعه السوداء. ورأى في هذه الوصمات صورة حياته كلها. أخذ المنديل بين أسنانه، كما

لو كان ليمزقه.

توقف القطار أخيراً في محطة كاستلماري ادرياتيكو.

في مقابل العشرين دقيقة الأخيرة من السفر، كان يتعين على القطار أن ينتظر أكثر من خمس ساعات في هذه المحطة. ذلك هو المصير الذى يلقى المسافرين في هذا القطار الليلى الآتي من روما في اتجاه انكونا وفوجيا.

وقد كان في المحطة، لحسن الحظ، قهوة مفتوحة طول الليل، كبيرة، حسنة الضوء، والمفارش على موائدها. وكان بالوسع، بفضل هذا الضوء وهذه الحركة، أن يحتمل المرء بَطَالة الانتظار الطويل وكآبته. ولكن وجوه المسافرين المتورمة الشاحبة المغبرة المجهودة يرتسم عليها ضجر كَدِر، وضيق كاتم للنَفَس، وغثيان رهيب من الحياة التي تتكشف للجميع، بعيدة عن المحبّات المألوفة وعن العادات الرتيبة، خاوية، بلهاء، سفيهة وحزينة.

ولعلهم كثير أولئك الذين أحسوا بقلوبهم تنطبق عند صفير القطار النائح الذاهب في الليل يتبع طريقه. ويمُسى الواحد منهم مهموما يفكر في أن المتاعب الإنسانية لا راحة منها قط، حتى في الليل، إذ هي تظهر لنا، في الليل خاصة، لا جدوى فيها، مجردة من أوهام الضوء، وبسبب هذا الحرج القلق الحصرىّ الذى لا قرار فيه، والذى يقبض على نفوس المسافرين فيدعها معلقة متأرجحة، يخالون أنفسهم ضائعين، وحدهم على الأرض، ويمسى الواحد منهم يفكر في أن الحماقة وحدها هي التي تشعل النار في قلوب تلك الآلات السوداء التي تذهب في الليل، تحت النجوم، تجري في السهول المعتمة، وتقرقع بجلبتها على الجسور، وتنفذ في الأنفاق الطويلة،

وتقذف بشكاتها بين الحين والحين، يائسةً من أنها تجرّ بالليل جنون الناس على طول السكك الحديدية المخطوطة لكي تطلق السبيل أمام هذياناته الوحشية التي لا ينال منها الكلال.

شرب سيلڤسترو نولي قدحاً من اللبن، على جرعاتٍ صغيرة، ونهض لكي يخرج من المحطة، من باب القهوة الآخر، في نهاية القاعة. كان بودّه أن يذهب إلى البلاج ينشق نسيم الليل على البحر، بعد أن يعبر الشارع الكبير العريض في وسط البلدة النائمة.

ولكنه إذ كان يمر أمام مائدة من الموائد، شعر بنداء من سيدةٍ ترتدي الحداد، ضئيلة القدّ، ناحلة رقيقة، شاحبة ومتهضمة، تخفي وجهها تحت قناعٍ كثيف.

– برفسّور نولي...

فتوقف مندهشاً متحيرا.

– مدام... أوه! انت؟ مدام نينا؟ كيف حدث هذا؟

كانت زوجة أحد زملائه، البرفسور رونشي، وقد عرفه منذ سنوات في ماتيرا، في مدرسة الصنايع. مات. نعم... مات – إنه يعرف ـ منذ بضعة شهور، في لانسيانو، وقد كان مازال شابا. كان قد قرأ النعي في دهشة مؤلمة. رونشي، المسكين، ما كاد يصل إلى المدارس الثانوية، بعد كل هذه المسابقات سيئة الحظ، حتى مات فجأة من هبوط في القلب، من فرط حبه ـ كما يقولون ـ لهذه الزوجة الرقيقة الضئيلة التي كان يجرها من خلفه أينما ذهب، كدبّ ضخم عنيف وعنيد.

قصّت عليه الأرملة، وهي ترفع إلى فمها منديلها الأسود الحواشي، وتنظر إليه بعينيها رائعتي الجمال، الغائرتين في

محجريهما الشاحبين المتورمين، كل آلام مأساتها الأخيرة القاسية، وهي تهز رأسها هزات خفيفة.

رأى نولي دمعتين كبيرتين تنحدران من عينيها الجميلتين السوداوين، فدعاها للنهوض والخروج من القهوة معه حتى يُتاح لها قدر أكبر من حرية الكلام، على طول الشارع المهجور، حتى البحر.

كان جسمها الشقيّ الصغير. يرتجف كله. وكان يبدو أنها تسير في وثبات صغيرة من الانفعال، وهي تهز كتفيها، وذراعيها، ويديها الجافتين الطويلتين طولاً مفرطا. وأخذت تتكلم بلهجة محمومة، وكان صدغاها ووجنتاها تشتعلان أحيانا. وكانت تتمتم أحياناً، وتردد الحروف في بداية بعض الكلمات، ويبدو وأنها تزفر من الغيظ والثورة. وتمر بمنديلها دون توقف على طرف أنفها وعلى شفتها العليا التي كانت تتفصّد عليها قطرات العرق بشكل غريب، في تعجّلها الكلام. وكان صوتها يختنق أحيانا ويغصّ بجريان ريقها.

– آه. نولي. ألا ترى... هنا... يا عزيزي نولي، تركني هنا. وحدي مع ثلاثة أطفال. في بلد لا أعرف فيه أحداً على الإطلاق، حيث لم أصل إلاّ من شهرين تقريبا... وحدي، وحدي تماماً! آه... كم كان رجلاً رهيباً غريباً، يا نولي! دمرّ نفسه، ودمرّني أيضاً، صحتي، حياتي... كل شيء... لقد مات وهو عليّ يا نولي... هل تعرف... وهو عليّ...

هزتها رجفة طويلة انتهت بصوت يوشك أن يكون صَهلة. واستأنفت حديثها:

– لقد نزعني عن بلدي، حيث لم يعد لي أحد الآن، إلا أخت، متزوجة... ماذا أفعل هناك؟ لن أقبل أبداً أن أبدو، بكل مظاهر

يؤسى. أمام كل أولئك الذين كانوا يحسدونني يوما.... ولكن هنا... وحدى مع ثلاثة أطفال صغار، لا يعرفني أحد... ماذا أفعل هنا؟ إنني يائسة.... وأحس نفسي ضائعة... ذهبت إلى روما أطلب المعاش... ليس لي الحق في شئ: ليس له إلا إحدى عشرة سنة في التدريس، أحد عشر مرتباً شهرياً، بضعة آلاف من الليرات... ولم يدفعوها لي بعد. وقد صرخت في الوزارة حتى ظنوني مجنونة... وقالوا لي يا سيدتي العزيزة... خذي دوشاً ب- بارداً... دوشا بـ- بارداً... أي نعم! ولعلني أصبحت مـ- مجنونة فعلاً... عندي هنا.... هنا دائماً... ألم... ألم كالنهش، كالشدّ، هنا، خلف العنق... نولي... أنا كالمسعورة... نعم... نعم... بقيت مسعورة من الحزن... كأنني محروقة من الداخل... وعندي نـ- نار... نـ- نار في الجسم كله... آه... كم أنت هادئ، ويدك باردة، أنت يا نولي. هادئ ويدك باردة... أنت!.

وهي إذ تتكلم، في وسط الشارع الرطب المهجور، تحت المصابيح الكهربية الواهنة المتباعدة التي لا تكاد تشيع في الليل ضوءاً خافتا لا شفوف فيه، تتعلق بذراعه، وتسند إلى صدره رأسها الملفوف بغطائها الاسود، تتحسس صدره برأسها كما لو كانت تريد لتدفنه فيه، وتنفجر بدموع وشهقات لا كبح لها.

تراجع نولي، بحركة غريزية، كأنما ليبعدها عنه، وقد ذهل، وبهت، واهتزت نفسه هزّاً عنيفاً. وأدرك أن هذه المرأة البائسة، في غمار اليأس الذي ينتابها، قد تعلقت في جنون بأول رجل قابلته من معارفها.

– تشجعي، تشجعي يا سيدتي... يدي باردة؟ هادئ؟ أي نعم...

هادئ! إن عندي امرأتي يا سيدتي العزيزة، أنا...

- آه...

وهي تبتعد على الفور.

- أيّ امرأة، أنت متزوج؟

- نعم، منذ اربع سنوات يا سيدتي، وعندي ولد أيضاً.

- هنا؟

- هنا.. قريباً جدا... في مدينة سانت انجلو.

فتركت الأرملة الصغيرة ذراعه.

- لكن ألست من بيمونت، أنت؟

- نعم، من تورينو بالضبط.

- وزوجتك؟

- آه... لا... زوجتي من البلد.

وتوقف الاثنان تحت مصباح من مصابيح الشارع. نظرا لأحدهما الآخر، وفهما أحدهما الآخر.

كانت، هي، من الطرف الأقصى من إيطاليا، من پانيارا كالابرا. رأيا أحدهما الآخر، في الليل، ضائعين في هذا الشارع الطويل الواسع المهجور الكئيب الذي يفضي إلى البحر، بين الڤيلات والبيوت الصغيرة النائية في هذه البلدة التي شد ما هي بعيدة عن محبّاتهما الأولى الحقة، ولكن شدّ ما هي قريبة من الأماكن التي ثبت بها القدر القاسي مقريهما. وأحسا بإزاء أحدها الآخر شفقةً عميقة، رحمة بدلاً من أن توحد بينهما. أغرتهما، بمرارة، بأن يبقيا أحدهما بعيداً عن الآخر، كل منهما محبوس مغلق عليه في شقائه الخاص الذي لا عزاء له.

ذهبا، فى صمت، حتى البلاج الرملى، واقتربا من البحر. كان الليل هادئاً كل الهدوء، وطراوة النسيم البحرى لذيذة.

لم يكونا يريان البحر اللامتناهى، ولكنهما كانا يحسانه، حيّاً، نابضاً فى الهوّة السوداء، غير متناهٍ، وهادئاً فى الليل. ولكنهما كانا يريان، فى نهايته، بين غيامات الضباب الجاثية على الأفق، شكلاً له لون الدم الكدر، يرتعش على المياه. لعله الهلال الذى يغيب، يغلفه الضباب.

كانت الأمواج تستطيل، وتتمدد على الشاطئ، دون زبد، كألسنةٍ طويلة صامتة، تترك على الرمال الثقيلة اللامعة المشبعة بالماء بضع أصداف هنا وهناك تنغرز فى الرمل إذ تنحسر الأمواج.

كان كل هذا الصمت الذى يفتنهما فى السماء، يعبره ومض النجوم التى لا عداد لها، تبدو حية كما لو كانت تريد أن تتحدث إلى الأرض فى السرّ الليلىّ العميق.

أخذا يسيران طويلا، صامتين، على الرمال الرطبة التى تنزل تحت أقدامهما، لا يتركان آثارهما إلا لحظة تختفى بعدها الآثار، فما يكاد ينطبع الأثر حتى يضيع. ولم يكونا ليسمعان إلا حفيف ثيابهما.

اجتذبهما قارب يضرب إلى البياض، فى العتمة، مقلوب على الرمل فجلسا إليه، هى إلى جانب وهو إلى الجانب الآخر، وبقيا هناك، طويلاً، صامتين، معلّقىْ البصر بالأمواج التى تصل هادئة شفافة تتسع على الرمل الأربد الطرىّ. ثم رفعت المرأة عينيها الجميلتين الواسعتين السوداوين نحو السماء، وكشفت، تحت ضوء النجوم، شحوب جبهتها المعذبة، وعنقها الذى يخنقه القلق والمعاناة.

– نولى... ألا تغنّى هذه الايام؟

- أنا ... أغني؟

- نعم، ألا تذكر الوقت الذي كنت تغنّي فيه، في الليالي التي يروق فيها الجو و يحلو الليل... ألا تذكر... في ماتيرا؟ كنت تغني... ومازلت أسمع صدى صوتك الخافت المنغوم... كنت تغني نصف هامس، بعذوبة... بحلاوة عاطفية... لا تذكر ذلك؟

وشعر، عند ابتعاث هذه الذكرى غير المنتظرة، بيقظة في كيانه كله، ومرت به رجفة حنان لا يوصف...

أجل... أجل... كان هذا صحيحا... كان يغني في تلك الأيام... هناك... في ماتيرا! في تلك الأيام كانت أغاني صباه العذبة العاطفية، ماتزال في روحه، وفي الأمسيات الرائعة، وهو يتمشى مع بعض الأصدقاء، تحت السماء والنجوم، كانت تنبثق هذه الأغنيات على شفتيه.

كان حقاً إذن أنه قد أخذها معه، أخذ الحياة معه، بعيداً عن بيت أبويه في تورينو. كانت معه تلك الحياة هناك، في ماتيرا، طالما كان يغني عندئذ... بجانب هذه الصديقة الضئيلة الجسم البائسة، التي عساه غازلها قليلاً... في تلك الأيام البعيدة، من تعاطف بينهما بلا شك، دون غدر ودون خباثة... لأنه كان بحاجةٍ لأن يشعر إلى جانبه بحرارة محبة صغيرة، بحنانٍ حلوٍ من صديقة...

- أتذكر يا نولي؟

وتمتم، وعيناه مثبتتان بفراغ الليل:

- نعم... نعم يا سيدتي... أذكر الآن...

- أأنت تبكي؟

- إنني أذكر...

صمتا من جديد. ونظرا، كلاهما، إلى الليل، وأخذا يحسّان الآن أن شقاءهما يوشك أن يختفي. فليس هذا الشقاء لهما وحدهما، بل للعالم كله، لكل الكائنات وكل الأشياء، لهذا البحر المظلم الذى لا راحة له، لهذه النجوم الوامضة في السماء، لكل الحياة التي لا يمكن أن نعرف فيها لماذا يولد المرء، ولماذ يحب، ولماذا يموت.

كانت العتمة الهادئة البليلة، تخترقها كل هذه النجوم، على البحر، تغلّف ألمهما الذى يتشتت وينتشر فى الليل، يتذبذب وينبض مع هذه النجوم،ويهبط فى ضربات بطيئة خفيفة رتيبة مع الأمواج، على الشاطئ الصامت. وكانت النجوم، هي أيضاً، ترمي بومضها في هُوَى الفراغ، تتساءل لماذا، والبحر يتساءل بأمواجه المكدودة، وحتى الأصداف الصغيرة المهجورة هنا وهناك على الرمال تتساءل بنفس السؤال.

لكن العتمة أخذت تتبدد شيئا فشيئا، وأخذ شحوب الفجر الأول يتبدّى على صفحة البحر. وعندئذ أخذ كل ما هو مشتت، خفى، بل مبطن، من ألم هذين الكائنين المسندين إلى جدران القارب المقلوب على الرمل، ينكمش ويتحدد، بصلابة عارية جافة، كملامح وجهيهما فى نور الفجر المهتز الحزين.

أحس نولى بالبؤس يأخذه من جديد، بؤس بيته القريب الذى سرعان ما يصل إليه الآن، ورأى بيته، كما لو كان قد وصل هناك، بكل ألوانه، وخصائصه، وامرأته وولده بداخله، يحتفيان بوصوله. وهى أيضاً، الأرملة، لم تعد ترى مصيرها بكل ذلك السواد، وكل ذلك اليأس، كان لديها بضعة آلاف من الليرات، أى أن حياتها مكفولة شيئاً من الوقت. وستجد الوسيلة لتنظيم مستقبلها ومستقبل أولادها

الثلاثة. فسوّت شعرها بيديها على جبهتها، وقالت مبتسمة:

- من يعرف كيف أبدو يا صديقي العزيز، أليس كذلك؟

وأخذا يسيران عائدين نحو المحطة.

بقيت ذكرى هذه الليلة في أعمق ركن من روحيهما، ومن يدرى! لعلها تظهر من جديد، أحياناً، فى ذكرياتهما البعيدة، كنافورة من الشِعر الخفىّ والمرارة الخفية، مع ذلك البحر الهادئ المظلم، وكل تلك النجوم الوامضة.

«جنون القمر»

«لويجي بيراندللو»

كان باتا جالساً، مقعيا منكمشاً على بعضه البعض، على حزمةٍ من التبن، في وسط الجُرْن.

وكانت سيدورا زوجته، تستدير لتنظر إلى زوجها الساهم الشارد الذهن، من حين لآخر، وهي على عتبة البيت، حيث كانت تقف مسندة رأسها إلى إطار الباب، عيناها نصف مغمضتين. ثم مدّت بصرها، وقد أرهقتها الحرارة الرازحة، إلى أبعد، حتى الخطّ الأزرق الذي يبدو من البحر البعيد، كما لو كانت تنتظر أن يهب منه نسيم خفيف مع غروب الشمس فيصل إليها عبر الأراضي المعرّاة الجافة المشعّة من أثر الدريس المحروق.

كانت الحرارة من شدة الوطء بحيث كان الهواء يبدو مشبعا بريح موقدة مشتعلة، فوق التبن الذي يتناثر في الجرن، بعد دريس القمح.

كان باتا قد استلّ عوداً من القش، من الحزمة التي كان يجلس عليها، وأخذ يحاول أن يضرب به حذاءه الغليظ، بيديه الخشنتين القشفتين. لكن محاولته ضاعت عبثاً، ظلّ يحرك عود القش حتى انثنى، وظل باتا عابساً مهموماً يستغرقه التحديق إلى الأرض.

وكانت هذه الحركة التي لا طائل وراءها، ما يفتأ زوجها يكررها بعناد، في الضوء المعتم الخامد بلا حراك، تثير عند سيدورا غضباً مكتوماً لا يطاق. بل كانت كل حركة، في الواقع، يأتيها هذا الرجل، بل مجرد مرآه يثير عندها هذا الانفعال الذي لا تكاد تقمعه في كل مرة إلا بعناءٍ ومشقّة.

لم تكد عشرون يوماً تنقضي بعد على زواجها، وها هي سيدورا تحس بنفسها مقضياً عليها، هالكة. وكانت تحس في داخلها، وحولها، بخُواءٍ غريب فادح الثقل، وقاسٍ. ولم يكن يبدو لها، حقاً،

أنها قد اقتيدت إلى هنا منذ هذه الأيام القلائل فقط، إلى هذه المزرعة القديمة المنعزلة، وإلى هذا البيت الذى هو اصطبل فى نفس الوقت، وسط هذه الصحراء من دريس القمح، دون شجرةٍ حواليها، دون خيطٍ واحد من الظل.

هنا، منذ عشرين يوماً لمّا تكد تنقضى، تُكاتم دموعها وغيظها بالكاد، أسلمت جسمها لهذا الرجل الصموت الذى يكبرها بنحو عشرين سنة، وهو الآن تثقله، فيما يبدو، كآبة أفدح يأساً من كآبتها.

تذكرت ما قالته نساء الجيرة لأمها، عندما أنبأتهم بخطوبته. - باتا! يوه ياختى، دانى ماكنتش أدّيه واحده من بناتى ابداً، لما يسوّى الهوايل!

وظنت أمها أنهن يقلن ذلك من الحسد، فقد كان باتا رضىّ الحال. وبقدر ما عزفت النسوة عن مشاركتها رضائها بالحظ الطيب الذى وقع من نصيب بنتها، واتخذن مظهراً محزوناً مكروباً، بقدر ما عاندت وصممت أن تعطيه بنتها. لا، لم ينل أحد باتا بسوء، فى الحقيقة، ولكن أحداً لم يذكره بالخير أيضاً. فلم يكن أحد يعرف كيف يعيش، معتكفاً منقطعاً فى ركن بعيد من الأرض، وقد كان وحيداً دائماً، كما لو كان حيوانا، برفقة بهائمه بغلين، وحمارتين، وكلب للحراسة. وقد كان بالتأكيد يبدو بمظهر غريب حيواني مستوحش، ويسلك أحياناً سلوك المجانين.

لا شك أن هناك سبباً آخر، أخطر وَزْناً، دعا الأم لأن تصمم على أن تعطيها لهذا الرجل. وتذكرت سيدورا هذا السبب الآخر الذى كان يبدو لها الآن بعيداً جداً، كما لو كان يرجع إلى حياةٍ أخرى، لكنه سبب واضح دقيق. رأت شفتين نديتين رقيقتين وقانيتين، كورقتى

قرنفلة، تنفتحان عن ابتسامةٍ تثيرها، وترجفها، وتجعل دمها يغلي في شرايينها. شفتا سارو ابن خالها ذلك الذي لم يقو، بالرغم من حبه لها، أن يصلح من شأنه وأن يتخلص من رفقة اصحاب السوء، حتى يحرم أمها من كل تعلة لرفض زواجها به.

آه، مؤكد أن سارو كان ليغدو زوجاً غير طيب بالمرة، ولكن الآن، ماذا نالت من زوجها هذا؟ ألم تكن الأحزان التي كان الآخر، دون شك، لينكبها بها، خيراً من هذا القلق الخانق، والغيظ، والخوف الذي يثيره هذا الزوج في نفسها؟

ثم استقام باتا أخيراً، وما كاد ينهض حتى أصابه دوار، فدار حول نفسه نصف دورة، وانطوت ساقاه تحته كما لو كانتا مقيدتين مغلولتين، وما بلغ التحامل على نفسه إلا بمشقة، وذراعاه تضربان الهواء، وانطلق من حلقه خوار غاضب مستثار.

جرت سيدورا وقد استبد بها الهلع، لكنه أوقفها بحركة من ذراعه، وغزا فمه سيل لا يغيض من اللعاب حال دونه والكلام. فطردها عنه من جديد، وهو يعوى بها، إلى داخل البيت، وهو ينافح الفواق الذي يهزه، وفي حلقه غرغرة مخيفة. وكان وجهه شاحبا، مكروباً، بلون التراب، عيناه رهيبتان، منذرتان، محجوبتان، مستبين فيهما، من وراء الجنون،خوف يكاد يكون صبيانيا، خوف مازال واعياً مدركا، ولا نهائياً. واستمر يشير بيديه، لكي تنتظر، لكي لا تخاف، ولكي تظل بعيدة عنه. وصرخ في النهاية، بصوتٍ ليس من صوته:

– جوه... احبسي نفسك جوه... كويّس... ما تطّربيش... لما اخبّط وارجّع... واهز الباب واخربش فيه، وازعّج... ما تطّربيش...ما تفتحيش... أبداً... ياللا روُحي!

فهتفت سيدورا مذعورة:

- ياه... مالك؟ إيه اللى بيك؟

فأطلق باتا من جديد صرخة مكتومة مصمتة، وارتجف جسمه فى تشنج عصبى. حتى بدت أطرافه كأنها قد تضاعفت أضعافاً، ثم أشار إلى السماء، وهو يهز ذراعيه، وجأر:

- الجَمر...!

استدارت سيدورا تجرى إلى البيت، ورأت فى ذعرها، البدر المكتمل، مشتعلاً، يضرب إلى لونٍ بنفسجى، ضخماً هائلاً، لم يكد يبزغ من قمم جبال لاكروكا المغبرّة الضاربة إلى السواد.

أوصدت على نفسها الباب من الداخل، وضمت ذراعيها إلى جسمها كما لو كانت تخشى ان تنتزعهما منها تلك الرعشة التى تهزها، لا تُغلب، وتضطرد قوتها. وهى تصرخ أيضاً وقد أفقدها الخوف صوابها. وسرعان ما سمعت خوار زوجها وزئيره الطويل الوحشىّ، وقد تقبض جسمه، بالخارج، أمام الباب، فريسةً للمرض الرهيب الذى يأتيه من القمر. وكان يخبط الباب برأسه، وقدميه، وركبتيه، ويديه، ويخدش فيه خدوشاً خشنة عميقة، كما لو كانت أظافره قد استحالت إلى مخالب، وهو ينفخ ويزفر وقد أثاره، وأضناه، تعب غاضب محنق حيوانى، كما لو كان هناك كلب فى جلده، وهو يخدش الباب من جديد، يسيل لعابه، ويهدر، ويدق الباب برأسه، وركبتيه.

فصرخت، وهى عارفة أن أحداً لن يسمعها فى هذا الخلاء:

- إلحجونى ! إلحجونى!

وهى تسند الباب بذراعيها، خشية أن ينفتح، بالرغم من المتاريس

المتعددة، تحت ضغط العنف المتكرر الوحشى المتوقد فى هذه الثورة العمياء الهادرة.

آه! لو كان بوسعها أن تقتله! استدارت وقد جن جنونها، وهى تتمنىَ تقريباً لو أنها وجدت سلاحاً فى الغرفة. ولكنها رأت القمر من جديد، من خلال قضبان النافذة، على الجدار الأمامى، وقد صفا الآن وترقرق، وأخذ يعلو فى السماء، يسبح فى ضوئه الناعم.

أطلقت، عند هذا المشهد، كما لو كان مرض القمر قد مسها بعدواه فجأة، صرخة مروّعة، وسقطت على ظهرها، دون إدراك.

وعندما ثابت إلى وعيها، مشلولة الحسّ، لم تفهم أولاً، لم كانت متمددة على الارض بهذا الشكل. ثم أعادتها المتاريس المسندة بالباب إلى الحقيقة، وذعرتُ، فوراً، من الصمت الذى كان يسود الآن فى الخارج. ونهضت مترنحة، واقتربت من الباب، وأصاخت السمع.

لا شئ... لا شئ ابداً.

وظلت طويلاً تصيخ السمع، يرهقها ويبهظها الآن هذا الصمت المغلّف بالسرّ، صمت الكون بأسره. وخيل لها فى الآخر أنها سمعت، على مقربة منها جداً، صوت تنهيدة، تنهيدة كبيرة، كما لو كانت نفثة صادرة عن قلق مميت.

ركضت على الفور إلى الصندوق تحت السرير، وجذبته نحوها، وفتحته، وأخرجت منه ملحفتها، واستدارت ناحية الباب. ومدت سمعها من جديد، طويلاً، ثم رفعت المتاريس واحداً بعد واحد، بصمت، وأزاحت المزلاج الداخلى، وواربت ضلفة من الباب بالكاد، وأخذت ترصد الخارج من الخَرْق الضيق الموارب.

كان باتا هناك أمامها، راقداً كحيوان ميت، منبطحاً على بطنه،

في وسط لعابه، وقد اسودّ وجهه وتورّم، وذراعاه مفتوحتان. وكان كلبه بجانبه يحرسه، تحت القمر.

خرجت سيدورا، وهي تحبس أنفاسها، وأغلقت الباب بحرص تام، وأشارت إلى الكلب إشارة عنيفة ألاّ يتحرك، وأخذت ملحفتها تحت ذراعها، ومشت، في حيطة، بخطوات مسترقة، وهربت في الخلاء، متجهةً إلى القرية، في الليل الذى مازال في عنفوانه، وقد غمره ضوء القمر.

فوصلت إلى بلدها، عند أمها، قُبيل الفجر. وكانت أمها قد نهضت منذ قليل. وكان الكوخ المظلم، كالجبّ، في آخر زقاق ضيق، لا يكاد يستنير بمصباح زيتي صغير. واندفعت إلى داخل البيت، فبدا أنها تشغل المكان كله. مضطربةً، منقطعة النَفَس.

فأطلقت الأم صرخاتها، إذ رأت بنتها في تلك الساعة، وفي تلك الحال، وجرت نسوة الجيران جميعاً إليها، والمصابيح الزيتية في أيديهن.

وانخرطت سيدروا في البكاء بدموع حارة، وهي تنزع شعرها، وتبكي، وتتظاهر بأنها عاجزة عن الكلام، حتى تتيح لأمها، وللجيران، أن يفهمن، وأن يحكمن على مدى البلوى التى نزلت بها، والذعر الذى نال منها.

- اتجنن م الجمر! اتجنن م الجمر!

غزا قلوب النسوة جميعاً ذعر خرافي من هذا المرض الغريب الغامض، عندما حكت سيدورا حكايتها. آه. غلبانة! ألم يقلن، هنّ، لأمها، إن هذا الرجل لم يكن طبيعياً، وإنه لابد يخفي سوءةً لا يمكن الإقرار بها، حتى أنهنّ لم يكنّ ليعطينه بنت واحدةٍ منهن، كان ينبح؟

كان يعوّى، كالذئاب؟ ويخدش الباب بأظافره؟ يا يسوع! يا حفيظ! وكيف لم تمت البنت من هذه الحكاية؟ غلبانة!

جلست الأم، منهارة، على كرسى، هالكة. تتدلى ذراعاها إلى جانبيها، رأسها محنىّ، وهى تئن، وتقول فى ركنها.

– آه! بنتى! آه! بنتى! آه، بنتى يا غلبانة! راحت البنتّ... راحت!

وعند مغرب الشمس، ظهر باتا على الطريق، يجرّ خلفه بغليه المطهمّين. كان منتفخ الوجه، مصفرا، حائراً، مكروباً ومهدود الحيل.

وعندما سمعت النسوة دق حوافر البغال على حصى الطريق التى كانت تشعلها شمس أغسطس كالفرن، فبعشى البصر، بسبب بهرة الطباشير، انسحبن جميعاً، يكاتمن صرخاتهن وحركاتهن من الذعر، ويحملن كراسيهن، إلى داخل الأكواخ، فى عجلة، وأخرجن رؤوسهن من الأبواب يرصدن ما يحدث، ويتبادلن الإشارات بالعيون، فيما بينهن.

خرجت أم سيدورا على العتبة، متكبرة، ترتعش من الثورة، وأخذت تصيح:

– ابعد من هنا، ابعد يا كافر! وعندك جلب تيجى لحدّيت عندى؟ ياللاّ امش انجرّ... انجرّ من جدّامى يا غدّار، يا جتّال جُتلَه، انجرّ من جدّامى! ودّرت بنتى! ضيعت بنتى! امش من جدّامى!

واستمرت تلجب وتصخب فترة من الزمن، على هذا المنوال، بينما كانت سيدورا قد انسحبت إلى ركن فى الداخل، تبكى، وتتوسل إلى أمها ان تدافع عنها، وألاّ تدعه يتقدم.

أصغى باتا، محنىّ الرأس، لتهديدها، ووعيدها وشتائمها. فقد كان يستحقها، كان مخطئا، لأنه أخفى مرضه. أخفاه لأنّ امرأةً ما

لم تكن لترضى به لو أقرّ به. وكان من الحق أن يحتمل الآن عواقب خطئه.

كان مغمض العينين، وقد هبط رأسه على صدره في ألم، دون أن يخطو خطوة واحدة. وعندئذ أقفلت حماتُه الباب في وجهه، وأوصدته بالضبّة والمفتاح. وبقي باتا لحظة، محنيّ الرأس، أمام الباب المغلق، ثم استدار، ورأى على عتبات الأكواخ الأخرى النسوة الكثيرات، يترصدنه بعيون مليئة بالكرب والذعر. هذه العيون رأت الدموع على وجه الرجل اليائس، وعندئذ انقلب الذعر إلى رحمة.

فأتت له إحداهن، أكثرهن شجاعة، بكرسي، وخرجت الباقيات، مثنى وثلاثاً، وأحطن به. شكرهن باتا، بإشارات خرساء من الرأس، ثم أخذ يحكي لهن، ببطء بالغ، حكاية بلوأه. كانت أمه، في صغرها، قدْ ذهبت به لغيطان القمح، ونامت في الجرن. وتركته، وهو طفل مايزال، معرضاً لضوء القمر طول الليل، وهو الطفل البرئ البائس، بطنه مكشوفة للهواء، بينما راحت عيناه تهيمان هنا وهناك، وراح يلعب بالقمر الحلو، وهو يهز ساقيه الصغيرتين وذراعيه الصغيرتين. فسحره القمر. ولم يظهر هذا «السحر» مع ذلك طوال سنين عديدة، ولم ينكشف إلا منذ قليل من الزمن. المرض ينتابه عند اكتمال البدر، مرة واحدة كل شهر. لكن المرض لا يصيب أحداً غيره، ويكفي أن يحتاط فيه الآخرون، وفي وسعهم أن يحتاطوا منه أحسن الحيطة، إذ لا يأتيه هذا إلا في مواعيد ثابتة، وهو يحس نذر المرض، ويتوقع مجيئه، في كل مرة، ولا يستغرق ذلك إلا ليلةً واحدة ثم ينتهي الأمر. وقد أمل ان تكون امرأته أشجع جنانا، وما دامت ليست كذلك، ففي الإمكان ترتيب الأمور، بحيث تعود إلى بلدها، عند أمها، في كل مرة

يكتمل فيها البدر، أو تأتى أمها إليها فى المزرعة، لترافقها تلك الليلة.

– ايه؟ أمى؟

وثبت سيدورا عندئذ، متقدة الغضب، شرسة، وهى تفتح الباب على مصراعيه، وقد كانت تسترق السمع من ورائه.

– أنت اطّيَرت ؟ أمى كمان، عاوز تجتلها من الطَرْبة ؟

وخرجت الأم تزيح بنتها بكوعها، وتأمرها بأن تخرس، وأن تكنّ فى البيت. واقتربت من جماعة النسوة، وقد أصبحن جميعاً رحيمات خيِّرات، وأخذت تتكلم معهن، ثم مع باتا، وحدها.

وكانت سيدورا، من عتبة الباب، تتبع حركات أمها وزوجها، حانقة وجِلة مغيظة، وخيل لها أن زوجها يعد أمها، بحرارة، بوعودٍ تلقتها هذه بتَرحيبٍ واضح، فصرخت:

– ولا يهمك منه! سيبك منهّ! انتو عما تتّفجوا بناتكم؟ ما فيش فايدة! ما فيش فايدة! طب دانى اللى لازم أرضى، آنى لوحدى!

فأشارت لها نسوة الجيران، بإلحاح، أن تصمت، وأن تنتظر نهاية الحديث. وسلمّ باتا فى النهاية على حماته، وترك عندها إحدى بغلتيه رهينة، ثم شكر الجيران، وذهب يجر خلفه البغلة الأخرى من خطامها.

قالت الأم على الفور، بصوت خفيض، وهى تعود لبيتها:

– اخرسى انتِ يا بتّ يا هبلة! لما يجى البدر، فى تمامه، حابجَى أجيلك هناك، مع سارو...

– مع سارو ؟ هوّ اللى جال ؟

– آنى اللى جلت له. اخرسى انتِ ! مع سارو...!

وخفضت عينيها لتخفى ابتسامتها، وتظاهرت بأنها تمسح فمها

الأدرد بطرف المنديل الذى تلف به رأسـهـا، وتعـقـده تحت ذقنهـا، وقالت:

- وهو احنا لينا راجل غيـره فى العـيلة؟ هوّ اللى يحـامى لْنا ويراعينا. اسكتى أنتِ!

فعادت سيدورا من الفجر، فى الغد، على البغلة الأخرى التى تركها زوجها.

ولم تعد تفكر فى غير ذلك طوال التسعة والعشرين يوماً الباقية على اكتمال البدر الجديد. وأخذت ترقب قمر أغسطس يتناقص شيئا فشيئا، ويتأخر مشرقه أكثر فأكثر، وكم كانت تودّ لو عجّل بهذه الخطوات الآفلة، ثم لم تعد تراه بالمرة بضع ليال. ثم رأت، أخيراً، الهلال الجديد، رقيقاً فى سماء الأصيل، ثم أخذ يتزايد شيئاً فشيئاً من جديد.

كان باتا يقول لها، بحزن، إذ يراها مثبتة العينين دوماً بالقمر: ما تخافيش، لسه بدرى. لسه بدرى! العيا ما يجيش إلاّ لما تروح الجُرون دول بتوعه...

أحست سيدورا برعشة مثلوجة عند سماع هذه الكلمات، مصحوبة بابتسامة غامضة، فنظرت إليه .

وأخيراً جاءت الليلة المشتهاة المخوفة فى وقت معا. ووصلت الأم، على حصان، مع ابن اخيها سارو، قبل بزوغ القمر بساعتين.

وكان باتا يجلس كالمرة السابقة تماماً، مقعيا منكمشاً على بعضه البعض، فى الجرن، ولم يرفع رأسه لتحيتها، حتى.

أما سيدورا، وقد كانت أوصالها ترتعش، أوصالها جميعاً، فقد أشارت إلى ابن خالها، وأمها، ألاّ يوجها له كلمة واحدة، وسبقتهما إلى داخل البيت. وذهبت الأم تبحث فوراً وتنقب فى غرفة معتمة

مجاورة للغرفة الكبيرة، وهى تُستخدم اصطبلاً أيضاً، حيث تراكمت الأدوات القديمة: الفؤوس، والمناجل، والمجارفٍ، والأجربة، والشوالات.»

قالت لسارو. إنتَ راجل.

قالت لبنتها: وانتِ اديكى عارفه هوّ بيعمل إيه. لكن أنا عجّزت خلاص، وبخاف من خَيالى. أنا جاعدة هنا فى الركن لوحدى، مش حنطج بكلمة. حجفل على نفسى، وهوّ يعمل زى الديابة برّا بُخطْره.

خرجوا ثلاثتهم، وظلوا يثرثرون فترة طويلة أمام البيت. وكانت العتمة تهبط على الريف، فتتقّد نظرات سيدورا، وتهتاج. أما سارو، فعلى العكس، وهو المرح المنطلق فى العادة، المتوفز بالنشاط، فقد أخذ يحس شحوباً، وهبوطاً يتزايد شيئا فشيئاً، وتصلبت ابتسامته على شفتيه، وجفّ ريقه. وكان لا يكاد يستقر فى جلسته، كما لو كان فى الحائط الذى يجلسون عليه أشواك تخزه، ويبلع ريقه بمشقة. وكان يلقى بنظرة بين الحين والحين، إلى هذا الرجل هناك، ينتظر هجوم الأزمة بل كان يمدّ عنقه ليرى ما إذا كان البدر، بوجهه المخيف، لم يبزغ بعد، من خلف جبال لاكروكا.

وقال للمرأة: لسه ما فيش حاجة.

فأجابته سيدورا، بحركة احتقار محتدمة، واستمرت تهيجه بنظراتها، وهى تضحك.

أخذ سارو يشعر بالذعر، وهو يستهول هاتين العينين اللتين كادتا تستضيئان بالجسارة والفجور، أكثر مما يستهول هذا الرجل المنكمش هناك بالانتظار.

وكان هو أول من قفز، كالجدى، إلى البيت، بمجرد أن أطلق باتا صرخته المنذرة، وأشار بيديه للثلاثة الآخرين أن يحبسوا أنفسهم

على الفور بالداخل. آه! شدما تعجل سارو بوضع المتاريس خلف الباب، بينما أخفت العجوز نفسها، بحيرة وخزى، فى الغرفة الجانبية الضيقة، وأخذت سيدورا تردد، محنقه، مخدوعة، متبطة، بلهجة ساخرة.

– ما على مهلك أمال. حاسب على نفسك... ما فيش حاجة ماديك حتشوف...

لا شىء ؟ آه... لا شىء ! وقد وقف شعره على رأسه بمجرد أن خبط باتا رأسه على الباب، وعند أولى صرخاته، وعند أولى خبطاته بالقدمين على الباب، أخذ سارو يرتعش كالورقة. وقد ابتل جسمه بأسره بالعرق البارد، وسرت فى ظهره رجفة لا تتوقف، وانفتحت عيناه فى محجريهما. لا شىء؟ يالله!... بالله العظيم! ولكن ماذا؟ أهما مجنونتان هاتان المرأتان؟ وبينما كان زوجها بالخارج، يخبط على الباب فى ضجة مروعة أخذت سيدورا تضحك، جالسة على السرير، تهزّ ساقيها، وتمد له ذراعيها، وتناديه: سارو! سارو!

نعم؟ وثب سارو، غاضباً، وقد ثار ثائره، إلى الغرفة الجانبية الصغيرة، وأمسك العجوز من ذراعها، وجذبها إلى الخارج، ورماها على السرير بجانب بنتها، وهو يصرخ:

– خدى، خدى ياشيخة، دى بنّتك مخلولة!

وتراجع نحو الباب فرأى، هو أيضا من بين قضبان النافذة العالية، على الحائط الأمامى، البدر الذى كان يصيب الزوج بكل هذا الضرّ، البدر الذى يبدو كما لو كان يضحك، سعيداً ووقحاً، من خيبة انتقام الزوجة.

انطونيو بالديني

ولد في روما سنة ١٨٨٩. وحارب مع المشاة فى الحرب العالمية الأولى. وعاد ليكتب عن انطباعاته في الحرب كتابه «جحيمنا» وعمل بالصحافة – وهي خطوة لا مفر من أن يتخذها كل الكتاب الايطاليين على التقريب. وقد عنى بالدراسات القديمة. وفى كتابه مزيج موفق بين الصرامة الكلاسيكية وحساسية القرن العشرين.

ذكرياته عن طفولته تكاد تقارب الجو البروستيّ: «من أبعد أعماق ماضيّ – ولعلى لم أكن قد جاوزت الرابعة من عمرى – مازال بوسعى أن أرى ورق الجدار المنقوش برسوم الزهور فى غرفة ضيقة دقيقة يفيض عليها النور. وذاكرتى لا تطيق أن تُبعد عن ذلك ذاهبة فى الماضى...»

له دقة فى الملاحظة، ونزعة إلى الشاعرية. وقد ظهرت القصة التى نختارها له فى مجموعة نشرت سنة ١٩٤٠.

وهو إلى جانب دعابته التى لا ترقى إليها دعابة، فى قصته هذه، وسخريته تلك الباسمة التى لا مرّ فيها. يحنو على رجله المسكين وكأنه يربت له على طيبة قلبه، طيبةً جذرية مهما بدا من شقاوته الساذجة الخام، ويضحك من خوفه من كل مغامرة، وجريه ليلعق أى فتاتٍ يتساقط من مائدة محملة لا يستطيع – هو – أن يجلس إليها، بل يقنع بصنوف خاصة به وحده من اللذة – بل الغبطة والنشوة – فى الفتات الساقط إليه عرضاً من وليمة الحياة.

فهل الكظة والشبع والتخمة، بأمتع، أو أرقى، أو ألذ ـ ما دمنا فى معرض اللذة الحسية – من التقاط ذريرات وهبواتٍ طائرة على طرف لسانٍ جائع مصوّح من الجوع والعطش ـ ومن ثم فهو مرهف الذوق

حتى آخر أطراف الحساسية؟ فإن هذه النتف المتطايرة من اللذائذ أيضاً ـ كالأخرى وأكثر ـ لتبعث برعشاتها الشاملة فتنفُص كلَّ أوصال الجسم المتوتر المشدود طلباً لها.

مسكين زفيرنيو.

فالقليل ـ بل القليل جدا ـ هنا، هو كفء الوليمة التى لن تُشبع أحداً ـ فى النهاية ـ ولن تُغنى من جوعٍ آخر عميق.

«زفيــرينــو»

«أنطـونيــو بالدينــى»

كان بيلادى زفيرينو باشيوشيولى عزباً فى منتصف العمر،ولم يكن بالرائق السمت، ولا بالدميم الخلقة، وليس هو بالأسمر ولا بالأشقر، وليس خجولاً هيابا ولا جسوراً مقحاماً، وليس محبب العشرة ولا كريه المقام. وإنما أقصد أن أقول إنه كان ينتمى إلى تلك الفئة من الناس التى لا يلقى أحد إليها بالاً، فى خارج نطاق تلك الدائرة المباشرة التى تضم أقرباءه وأصدقاءه. إلا أن تلك الدائرة واسعة عريضة جداً، تشتمل على عددٍ غير مألوف من أقاربه الأقربين، كما تشتمل على عدد أكبر، إن كان ذلك ممكنا، من أبناء الأعمام والأخوال من الدرجات الأولى، والثانية، والثالثة، رجالاً، ونساءً وهذه الطائفة الأخيرة هى الطائفة الهامة. ولما لم يكن لديه ما يشغله كثيراً طول النهار، فقد كان الأغلب أن تجده فى بيت أحد أبناء عمومته من الرجال، أو فى بيت إحدى قريباته، سواءً كانت فتاة صبية، أو عروساً منتظرة، أو أرملة جذابة. وإن كان من المسلم به أنه كان فى الحق يتشوف زيارة هاته القريبات، على الأغلب، لكنه لا يذهب فعلاً إلا فى القليل من الأحوال. فلم يكن يعرف غيرهن من النساء. قصر اهتمامه على بنات عمومته العزيزات. وفى تلك الدائرة، كما ذكرت، كان عليه أن يختار – فى مجالٍ واسعٍ للاختيار – فيجد الفرص السانحة لأن يرقبهن وهن يقمن بأعمال البيت، أو شغل الإبرة، أو يقرأن. ولم يكن ليتوانّى فى اغتنام الفرصة، فيتبعهن إلى المطبخ، وهو لا ينى عن الثرثرة، أو يدير لهن ببطء لفات الصوف على يديه، بينما يقمن هن بفكّ اللَفّة. ويتلبثّ زفيرينو فى البيت، يسدى ألف خدمة، فيقف على الكراسى والموائد ليصلح من الأنوار والأجراس الكهربية، ويضبط الراديو، ويبحث لهنّ عن الأرقام فى

دليل التليفون، ويقرأ الأخبار لعماته، أو التقارير البرلمانية لأعمامه، وبعبارة موجزة لم يكن عدد المدافئ التي يدفئ نفسه بها ليقل، بأي حال، عن عشرين... في عشرين بيتا. وكانت صفحات مذكرته قد سودت كلها بتواريخ أعياد الميلاد، وأعياد الأسماء، واليوابيل الفضية للزواج، التي يحتفل بها أقرباؤه جميعاً، نساءً ورجالاً، كباراً وصغارا. ولم يكن لتفوته حفلة تنصير واحدة، ولا حفلة قربان أوّل، أبداً، ولا حفلة قران ولا جنازة، بل بسط جناح صداقته لكلابهم، وقططهم، وللكناري، والببغاوات، وكان يخزن في ذاكرته ميزات الخادمات، ونقائصهن، في البيوت التي يتردد عليها، بعد سنوات عدة من موت الخادمات المذكورات، أو رحيلهن.

ولكن بنات عمه كنّ اختصاصه الأول، ونقطة تفوقه، أو ينبغي أن أقول، نقطة ضعفه. وكان يأتيهنّ حزينا، صامتا، بطريقة مهذبة لطيفة خفية، مقصوداً بها ألاّ تمس مشاعر الخطيب أو الزوج، ولا تثير فيه غيرةً مسرفة غير مأمونة. وعلى ذلك فقد كان يتمتع بامتياز الدخول إلى أكثر حُرم العائلات قداسة واستعصاء، دون أن يثير فضيحة ولا استغرابا. فقد كان ليبدو من غير اللائق أن ينكر على هذا الخبير بصنوف الطعام والشراب، مثلاً، ويألف شئ آخر أيضاً، فرصة إسداء خدماته. بل لم يكن من غير المعتاد، في الواقع، عندما يدخل بيتاً أو يخرج منه، أن يمسّ يد بنت عمه العزيزة، لحظة أطول مما ينبغي، أو يقرص خد بنت أخت عزيزة لم يَعُد من الممكن أن تعتبر طفلة تماماً الآن. أما في الصيف، عندما كن يذهبن أو يجئن من أمامه، في فساتين بلا أكمام، فقد كان يبلغ أحيانا أن يمسك بالذراع العارية، ويضع إصبعاً أو إصبعين على المرفق، في نفس الوقت. ذلك

أقصى ما يصل إليه. وفى حالات الأزمات العائلية فقط، والجنازات، كما سترى الآن، كان يستطيع زفيرينو أن يذهب إلى أبعد من ذلك، ولم يكن ليتوانَى أبداً عن الظهور، إذ تسنح فرصة اللحاق بجمع عائلى حزين. وعندئذ كان يتسلل من باب الحزن المفتوح، كلص، ليختطف على أطراف أصابع إحساساته، إن صح التعبير، أغمض أنواع المتعات وأرهفها وأخفاها. ولنأخذْ الشواهد الصغيرة التالية مثالا:

كان زوج كونشيتينا الشاب قد مات، وأودع جثمانه التراب. وكانت الأرملة التى برّح بها الحزن وندّ عنها العزاء، قد سقطت، بعد أن عادت من الجنازة، تبكى على مقعد طويل فى البيت. وما زال قناعها الأسود الكثيف مسدلاً على وجهها. فقبض زفيرينو على إحدى يديها، يهتصرها مشجعاً، وفكّ الدبوس عن قبعتها. فافضى ذلك إلى تحرير وجهها من القناع، ومكّنه من أن يسوى، برقة بالغة، شعرها الذى تهدل على صدغيها، مهوّشاً على وجهها المتورم من البكاء. ومرّ بأطراف أصابعه على وجنتيها المنداتين بالدموع، وهو يدفعها، بلطف وعزم، يقنعها بالاضطجاع قليلاً على المقعد، لتتمالك، قواها. وأمسك بها، فى ذلك، من تحت إبطيها، وهو يبذل جهداً، ليرفعها على ساقيها اللتين لا تكادان تقويان على حملها. فدفنت رأسها فى صدر ابن عمها، فى انفجارٍ من الحزن، وقد استبد بها الأسى حتى لم يعد بمقدورها أن تكبحه.

وقد أصبح مفرق شعر كونشيتينا، الأرملة، الآن، فى متناول شفتى زفيرينو، فكم كان يتحرق ليضعهما عليه.

وفى طريقه إلى البيت، بالرغم من الريح التى كانت تصفر فى

الشوارع، تثير التراب وتهز مصابيح الشارع، كان زفيرينو مازال يحتفظ فى أنفه بعبق الشعر الأسود، والقماش الأسود الجديد، والأزهار الذابلة. وتساءل، وهو يستيقظ صباح اليوم التالى: هل انتبهت؟ وكان هذا السؤال مُلحّاً، وكان وعيه بالعبق المتخلف عنها حاداً، حتى لم يستطع أن يتناول إفطاره، بل شعر بما يجبره على الذهاب إلى كونشيتينا. واندفع صاعداً كالسهم على السلالم، وقلبه يخفق. ولكن الأرملة تلقت تحياته فى دهشة وشرود، فأدرك زفيرينو على الفور، دون حاجة إلى أدلة أخرى، أن كونتشيتينا لم تنتبه لشىء، إلا أن ذلك لم يقلل من أن ذكراه المتواضعة لتلك اللحظات الأولى العذبة كانت تكفى لتغذية زفيرينو بالنشوة زمناً لا تحديد له. وعندما غيرت كونشيتينا طريقة تصفيف شعرها، فلم يعد يستطيع أن يرى الفرق الأبيض فى وسط شعرها، أحس بما لم يكن ليقبل أن يسلمّ به طواعية من الحزن والضيق. حتى ماتت السيدة روزاليا أم جرازييلا.

وسرعان ما كان يُيمم شطر بيت عمته المسكينة. كانت جرازييلا تجلس إلى مائدة الطعام وقد تناثرت عليها الصور الفوتوغرافية القديمة. وكان وجهها مختفياً تحت ذراعيها الجامدتين بلا حراك. وكانت تأتى من الغرفة المجاورة تمتمة صلوات ورائحة الشموع. سحب زفيرينو كرسيّا، دون أن يشعرها بوجوده، واقترب من جرازييلاّ، ووضع راحة يده على ذلك الظهر الناعم الذى مازال يرجف بالنشيج، وقوامها البديع. شعرت الفتاة التى نال منها الحزن كل منال، فى نهاية الأمر، بمسته. وأدارت وجهها العذب التقاطيع الذى مازال مبللا بالدموع نحوه، وألقت بذراعيها حول عنق معزيها، الذى

ظل هناك، مؤدياً واجبه، في هذا الوضع، وقد غرقت إحدى صفحتي وجهه بدموع اليتيمة. ذلك كان من أروع أيام زفيرينو. وليلتها مرت أمام عينيه المفتوحتين أحلام غريبة. وكانت أفكاره تعود دائماً إلى نقطة ثابتة، أكان مما يصدّق أن جرازييلا، وقد غلبها الحزن على أمرها، لم تشعر بذراعي ابن خالها، وقد استدارتا بها وراحتا تهتصرانها، لحظة؟ وعاد صباح اليوم التالي إلى بيت جرازييلاّ، ولكن كلماتها الأولى اقنعته بأن الطفلة المسكينة لم تحس إطلاقاً بما حدث في اليوم السابق. إلا أن زفيرينو استمر مع ذلك يحس بذراعيها حول عنقه، وبخدها إزاء خده، طوال أيام عديدة، طوال أسابيع. وفي بعض الأحيان لم يكن بمقدوره أن يجري صاعداً على سلالم بيتها إلا شعر بخفق غراميّ في صدره.

كانت كارميللا تغادر بيتها للمرة الأخيرة، لتذهب إلى الدير. وكان أبواها الحزينان يحيطان بها، وأخواتها، يحاولون جميعاً أن يكاتموا بدموعهم، وكان زفيرينو يقف في وسطهم، يبدو متحيرا. لكنه، هو الآخر، استطاع أن يقبّل الراهبة الجديدة. ومن هذه التجربة، راح يحمل طول الموسم، ذكرى الطعم الحلو المرّ المؤلف من الدمع والشمع والرخام. ذلك أيضاً كان يوماً لا ينسى.

وكانت العمة كلوتيلدا عمةً خاصة جدا. كانت أصغر بسنتين من ابن أخيها، إذ كانت قد تزوجت وهي صغيرة جداً بأصغر أعمام زفيرينو وكان رجلاً تافها ضحلاً قاسياً هجرها فور زواجهما إلى حضن امرأة أخرى ولكنها ظلت رغم هجرانه شابة نضرة بشكل غريب، لا أحد يدري كيف. وذهب زفيرينو يوماً ليزورها ومعه القائمة الكاملة للأرقام الرابحة في اليانصيب، ليراجع رقم تذكرة عمته

عليها. فوجدها شاحبة مضطربة، وقد نال منها رعب عظيم. كانت قد رأت، قبل ذلك مباشرة، ظلاً معتماً يندفع أمام النافذة المفتوحة على الفناء، وسمعت بالفعل صرخات وأنيناً يصعد إليها من الفناء. وكانت تخبره بالحكاية، وتهزها رجفة ذعر واستبشاع، من القوة بحيث شحب وجهها مرة أخرى شحوباً مخيفاً، ولولا ذراع ابن أخيها لسقطت على الأرض متهاوية. ورفع زفيرينو عمته إلى الكنبة، وانتظر حتى يسكن طائرها وتتمالك جأشها. وكان الوقت صيفا، وهما وحدهما فى البيت. وأخذ يسوى وسادةً خلف رأسها، ورفع يدها التى كانت متدلية بلا حياة، فوضعها على صدرها. وأخذ يهوّى وجهها المندى بالعرق، وفكّ، بأصابع مضطربة، عقداً كان يقيد زورها. ماذا كان بوسعه أن يفعل أيضا؟

وعندما عادت إلى الوعى، كانت عيناها ما تزالان مغمضتين، وكانت تصعد أنفاسها ثقيلة. وأخذ زفيرينو يناديها باسمها، بلطف ورقة. كلوتيلدا.... كلوتيلدا - بالرغم من أنه لم يكن يناديها، حتى ذلك الوقت، إلاّ «عمتي»، ثم أخذ يدعوها: تيلدا... ثم كلوتى... وأخيراً ركع على ركبتيه، وأخذ يهتف بها بصوت خافت: تيلدا، حبيبتى... وتنهد تنهدة عميقة: يا غرامي... وبينما كان يدعوها، على هذ النمط، فتحت عينيها على سعتهما، وصفعته بيد متراخية، وهى تؤنبه بمكر ولطف، وقد عاد الدم فضرج وجنتيها وزاد من جمالها، ومازالت راقدة. وقالت له: بالاسم، والفعل أيضاً، مشيرةً إلى اسمه «باشيوشيولى» الذى يعنى ذلك الذى يحب التقبيل كثيرا. ألم تكن تلك اللحاظ، والتلميحات، إلا مما يدخل فى نطاق علاقة العمة بابن أخيها، لا أكثر؟ أخذ هذا السؤال يلحّ على زفيرينو وقتاً طويلاً، ولم يأت

ليزورها، ولم يقرأ لها قائمة اليانصيب الكاملة إلا بعد مرور فترة أخرى من الوقت.

وكان أحد أبناء أعمامه البعيدين، لياندرو، على وشك الإبحار فى رحلةٍ لليابان، ليقوم بمهمةٍ تستلزم غيابه عن الوطن، وتستغرق منه بضعة شهور. وكانت زوجته، وبناته الأربع، يودّعنه المسكينات. حتى اللحظة الاخيرة لم يقوين على قبول فكرة الفراق. كان ذلك مشهداً مؤلماً للعائلة والأصدقاء، وكان زفيرينو هناك أيضاً، بالطبع. وفى طريقه للرجوع - ولم يكن يسكن بعيداً عن بيت ابن عمه - وجد نفسه محشوراً فى العربة مع بنت عمه، وبناتها الأربع، وقد أنساهن الأسى كل شئ، فلم يشعرن بأنهن يُغرقن ابن عمهن العزيز. أما هو، من ناحيته، فقد كان سعيداً، كما لو كان أباً محبوباً، وقد كاد يختنق تقريباً بين نونزايتينا، ويولنذينا، وفيلويمينا، وباليرا، وأمهن التى لم تكن تملك إلا أن تهزها العربة، وتقذف بها هنا وهناك فى الداخل. ودفع زفيرينو أجر السائق، وصحب السيدات على السلالم، عاجزاً عن ان ينتزع نفسه من بين هذه الوجوه الصغيرة المتورمة بالأسى والألم، وقد عقد نيّته سراً على أن يدخل معهن إلى البيت، ويبقى ليواسيهن، الأربعة، أو الخمسة جميعاً ولكن الباب ما كاد ينفتح حتى اندفع جرو أسود صغير، وهبّ على ساقيه، وهو ينبح ويعوى، كما لو كان يقى البيت الذى غادره سيدّه فترة من الزمن، ويذود عنه الغرباء. فسلّم عليهن زفيرينو من الباب، ورجع. وفى تلك الليلة، حلم بالخمسة، مع حذف الكلب، فى اختلاط ممتع يدعو إلى النشوة، من مشاعر العم وابن العم وصديق العائلة، ممتزجة كلها بعضها بالبعض. وبعد بضعة أيام، بحجة سؤاله عن أخبار لياندرو - بالرغم من أنه كان

يستحيل ان تكون قد وصلت ثمه أخبار في هذه الفترة القليلة – عاد إلى البيت، واندفع على السلالم ثانية، وفي يده علبة حلوى وباقة زهر. وكان على وشك أن يدقّ الجرس، إلا أن الكلب اللعين، خلف الباب المقفل، أخذ ينبح بغضب وثورة، حتى كفّ زفيرينو، ووقف ساكنا بلا حراك، يده مرفوعة متصلبة. ثم نزل بهدوء على أطراف أصابعه.

مسكين زفيرينو باتشيو شولي – كم كان ليرضى، في تلك المناسبة، كشأنه دائماً، بالقليل جدا...

ماسّيمو بونتيميلي:

ولد في كومو سنة ١٨٧٨؛ وبدأ حياته مدرساً بالمدارس الثانوية، في سنة ١٩١٠. ثم عين رئيساً للتحرير في صحيفتين متعاقبتين، وأسس مجلته الخاصة «٩٠٠». وقد شغل بالحركة السيّريالية حيناً، وكتب شعراً وقصصاً قصيرة وروايات وكوميديات ومساخر، بل ألفّ الموسيقى أيضا.

وفي قصصه أحيانا حساسية تكاد تشفي على الحساسية الأنثوية، وإحساس بالأجواء والمشاعر الريفية – كما هو الشأن في «الديك». مما يكاد يذكّر المرء بالكاتب الانجليزى هـ.ا. بيتس.

«الديك»، على صغرها، وتفاهة شأنها فيما يبدو لقارئٍ غير صاح، قصة موحية، غنية. وليس الديك إلاّ عنصراً أولياً بدائياً، في كبريائه وزهوه وإبائه، من العناصر الوثيقة الصلة بجذور الحياة، والأرض. وقد انتقل فجأة إلى شقة ضيقة في المدينة، وحبس بين جدران صماء نظيفة، على بلاط ممسوح، مربوطاً بقطعة من الدوبارة. لكنه يقلق أولئك الناس من أهل المدينة، ويشعرهم بإثم غامض يشيع في طراز حياتهم، وعليهم ان يُكفّروا عنه. والخادمة الريفية لا تدرك من الأزمة المستخفية إلا أخلاقيةً ساذجة صارمة هى أخلاقية الريف التى لا تتبع إلا خطّاً واحداً مرسوماً للسلوك. ولكن نزعة بدائية عميقة وغامضة في نفوس بسيطة متحضرة، تتغلب غلى الحلّ التقليدى، وتعيد تأكيد قيم أساسية. ويطلق سراح العنصر الأبيّ الذى لا يقبل الحبس، فيعود لمغامرته الخاصة لا فى شوارع البلدة المفضية إلى المزارع فحسب، بل في ساحات نفوس الحضريين التى مازالت تلبى نداء الغيطان.

«الـديـك»

ماسّيمو بونتيميلي

كان لوشيانو - الذى يعيش فى الريف - قد أرسل إلى أصدقائه ديكاً صغيراً على سبيل الهدية. وكان هؤلاء الأصدقاء - الجد، والأم، وساندرينو - يجلسون إلى المائدة، عندما وصل الديك. فظهرت دولوريس عند باب غرفة الطعام، وقد تضرج وجهها من الانفعال، وأعلنت النبأ بصوت مرتفع. فهبّ ثلاثتهم عندئذ، وجروا إلى المطبخ ليروه. وكان الديك قد احتمى تحت حوض المطبخ، ووقف هناك، منتصب القامة، لا حراك به إلا فيما يتعلق بعنقه ومنقاره الذى كان يطعن به، فى تشنج، فى اتجاه الكائنات الإنسانية وقد وقفت متزاحمة بالباب، تراقبه فى صمت، مفتتنة به.

حتى دولوريس لم تقل شيئا، لكنها لم تكن خائفة. وكانت تبتسم ابتسامة راضية، فقد شعرت أنها عادت إلى الريف مرة أخرى. وكان ثمة شئ تريد أن تعبر عنه، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات. وكان خوف سادتها يبدو لها مضحكاً داعياً للسخرية. ثم قال الجد فى النهاية:

- ده ديك، اسمه باللاتينى «جالاس كريستاس» فقطع ذلك السحر، وأطلق ساندرينو صرخة كصرخة المحاربين، وهمّ بأن يندفع نحو الديك، لكنّ الديك قفز فجأة، فأمسكته أمه، صائحة، من كتفه، وجرّته إلى الخلف.

ثم عبرت دولوريس المطبخ ضاحكة، واتجهت إلى الحوض مباشرة، وانحنت على العدوّ، وأمسكته بمهارة من رجليه، ورفعته عالياً، منتصرة ظافرة. تدلى الديك منقلباً رأساً على عقب، وهز عنقه المغطى بالريش المتهيج، تعلوه عينان مدوّرتان كأنهما حصاتان. وسألتهم دولوريس، مشرقة الوجه:

– ندبحه الوجْت؟

فسرت رجفة في الأشخاص الثلاثة المزدحمين بالباب. واكتشفت الأم فجأة سبباً وجيهاً لتفثأ به حماس دولوريس:

– لأ. نستنى لما بابا يجى. حيرجع بكره الصبح.

وهتف الجد، وساندرينو معاً:

– أيوه! أيوه!

فقالت دولوريس:

– طيب، بكره بَجَى. أول ما سيدى يشوفه نبجى ندبحه، ونعمل منه عشوة يوم الحدّ.

وأسرعت قائلة:

– ونحطه فين لغاية الصبح؟

وبعد أن طُرحت اقتراحات شتى على بساط البحث، انعقد الاتفاق على اقتراح دولوريس بأن يوضع في البلكونة الصغيرة الواقعة في نهاية الممر، ومن ثمّ أخذته، وربطت دوبارة بإحدى رجليه، وقال ساندرينو موصيا:

– طوّلى الدوبارة أحسن، عشان ما تبقاش تقيلة عليه.

ورجع إلى المطبخ. وبقي الآخرون قليلاً، يراقبون الديك الرائع من النافذة. كان قد اتخذ مركزه. في وسط البلكونة، ووقف بلا حراك، زاهياً فخماً، كما لو كان مركز الكون.

كانت فكرة غريبة من لوشيانو أن يرسل هذا الديك إلى أصدقائه في المدينة. إلا أنه ينبغي أن يكتبوا له خطاباً ليشكروه، وعلى ذلك مضت الأم لتكتب الخطاب، وذهب ساندرينو ليذاكر دروسَه، ومضى الجدّ إلى سريره. وما كادت ربع ساعة تمضي، حتى كان ساندرينو،

على أطراف قدميه، في الممر، ليلقى نظرة على البلكونة. وما أن وصل هناك حتى سمع حفيفاً، واستدار. كانت أمه قد جاءت، بنفس الفكرة:

– ودروسك يا شقى؟

– وأنتِ يا ماما، الجواب؟

ورجع كلٌ منهما ضاحكاً إلى مهمته، فلاحظا باب غرفة النوم ينفتح عن الجد. وما أن حان وقت العشاء حتى كانوا فى غير حاجة للتعلل بالأعذار، ليتزاحموا فى الباب، ويحدقوا إلى ضيفهم.

كان الديك يخطر متبختراً الآن، مشدود القامة، وفى عينيه نظرة شريرة. واستحالت البلكونة الصغيرة، فيما يبدو، إلى مقصورة خاصة به. وكانت دولوريس قد وضعت فى ركنٍ منها طبقاً به طعام. لكن الديك لم يمسّه.

وبدأ الجد يتكلم:

– الديك من أقل الحيوانات ذكاء.

فقال ساندرينو:

– باين عليه مبسوط من نفسه جداً.

وتنهدت الأم فى شكوى، وقالت:

– تصوروا إنهّ امبارح بس كان حرّ، فى الفلاحين، فى وسّط فراخه.

وصلت دولوريس فجأة، وما كادت تسمع كلمة «فراخ» حتى انفجرت بالبكاء.

– مالِك، جرى إيه؟

فأجابت البنت من بين دموعها:

– ولا حاجة يا ستى، ما فيش... مافيش حاجة.

وكانت فى الواقع قد كفّت عن البكاء، ودعكت عينيها بسرعة، بظهر يديها، وسألت:

- ندبحه بالسكينة، ولاّ نجطم رجبته؟

وفي عينيها ومضة.

فقالت سيدتها بسرعة:

- ما احنا اتفقنا على بكره خلاص.

واصل الديك خطوه في البلكونة، بسمتٍ وجلال، ولم يلق لسجانيه بنظرة. وكانت الشمس تغرب الآن، فتكسب ريشه الخلفى صبغة بنفسجية ضاربة للاحمرار. وفتحت دولوريس باب البلكونة. وما أن سمع الديك الصوت حتى استدار. وكانت أشعة الشمس تمسّ الآن عرفه وعينيه. وكان يتبختر فى كِبْر، وريش ذيله يضرب الهواء، وصدره منتفخ بالغضب المكتوم. فقالت الأم:

- مش معقول إنه كان كتكوت فى يوم من الأيام، كتكوت أصفر صغيّر.

فقال الجد:

- أُدخل الديك من الصين إلى أوربا، قبل المسيح بعدّة قرون.

وتمتمت الأم:

- ساندرينو، فيه حاجة شاغلاك؟

فأجاب الولد:

- أصله لازم زعلان جداً!

وفجأة قفز الديك قفزة واحدة رشيقة، ونطّ إلى مقعد خشبى فى الركن. وهتفت دولوريس: الله! وقد فزعت، واندفعت إلى الأمام لتخبط الديك فتنزله من على الكرسى، وتبعد الكرسى عن قاعدة النافذة.

وقالت على سبيل التفسير:

- ينط كمان على الشباك، ويمرج على طول.

وكانت محقة، فقد كانت النافذة على مقربة من مستوى الأرض، وكانت توجد تحت البلكونة تماما أرض صغيرة غير مزروعة، تفضى إلى الشارع.

- كويس إننى وصلت دلوجت. لو ما بعدت الكرسى من هناك، كان مَرَجْ بالليل.

حدق الديك إلى دولوريس، بعينٍ واحدة أولاً، ثم بالعين الأخرى. وكان يبدو أنه لا ينظر إليها بإنسان العين، بل بالبقعة البيضاء تحت محجرها.

وكانت الظلال قد طالت على الشرفة، بعد ساعة أو ساعتين. لم يكن الديك قد نقر فى شئ على الإطلاق، من الطعام المجهز فى الطبق، ولو على سبيل التجربة.

- حياكل الليلة؟

- وهوّ عارف إنه حياكل آخر مرة فى حياته؟

تعشوا فى صمت جميعاً، ومضوا إلى الفراش بسرعة.

التأم شمل العائلة فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى بالضبط، ككل صباح آخر. «صباح الخير». «صباح الخير». «صباح الخير». كانوا جميعاً يتجنبون أعين بعضهم البعض. كان ذلك، على الأقل، واضحا. وكانت الأم تجهز الفطور دائماً، لأن دولوريس تذهب فى هذا الوقت إلى السوق. ويبدو أن صنع القهوة باللبن كان يستغرق اليوم اهتمام الأم، أكثر من المعتاد، لسببٍ غامض. وأغرب من ذلك أن أحداً من الثلاثة لم يخطر له ان يذهب ليقول للديك صباح الخير،

ولم يهمس أحدهم بكلمة. وفي أثناء ذلك كانت دولوريس قد رجعت، مبهورة الأنفاس، بسلتّها، من السوق. فقالت بصوت مرتفع من بعيد:

- أنا رحت السوج جوام، وما شفتش حتى إذا كان أكل حاجة، عشان لازم ندبحه من غير الحوصْلة ما تكون مليانه. إمتى سيدى حاييجى؟

ولم تنتظر إجابة، بل اندفعت كالسهم. ولكن ساندرينو قام عن قهوته، ولم يكملها بعد، قائلا:

- لازم أروح طيران، بعدين أتأخّر عالمدرسة.

ومضى، وصفق الباب خلفه، بينما كان الجد يتمتم:

- الله! أنا نسيت نضارتى.

وجرى إلى غرفة نومه.

وأخذت الأم، في بطء مقصود متعمد، تعد الأكواب المصفوفة فى الدولاب. وكانت حادة السمع جدا. وبينما هى تعد، كانت تسمع كل خطوة من خطوات دولوريس فى الممر، وصوت السلة يُقذف بها على الكرسى، وخطوتين أُخريين، ثم الباب. كان دولوريس تفتح باب البلكونة. لحظة وجيزة من الصمت التام بعد هذه الأصوات الدقيقة، ثم صرخة ثاقبة من دولوريس عَبْر الفسحة، وهى تنادى:

- ستّى ! ستى!

وفى ثانية، كانت قد عادت، وقبضت على سيدتها من ذراعها، وجرتّها جراًّ إلى نهاية الممر، أمام النافذة المفتوحة. وأشارت إلى البكلونة الخاوية، والدوبارة المقطوعة، وقاعدة النافذة.

- هرب. مَرج جطع الدوبارة. ما كنتش عايزة... آآه!

تنهدت، وأطلقت صرخة أخرى مروعة، واندفعت لتفحص طرف

الدوبارة الذى كان يتدلى من مسمار حديدى، بتدقيق أكثر. وقالت:

– لكن طرف الدوبارة مش متاكل ولاّ مفرول. دا مجطوع نضيف بالسكينة، ولاّ مجصّ. مين جطعه دلوجْت... مش آنى!

أبعدت السيدة يدها بلطف عن ذراعها، وتظاهرت بأنها تصغى إليها، وقالت:

– لحظة واحدة. أونكل بينادينى.

وجرت إلى هذا الأخير، فى غرفة نومه، ودخلت، وأغلقت الباب خلفها. ووجدت دولوريس نفسها وحيدة، بالقرب من النافذة المفتوحة، فى البلكونة المهجورة، أمام الدوبارة المقطوعة. وأحست نفسها، وحدها فى العالم الفسيح الملئ بأناس غرباء، وأشياء لا تفهمها. وكانت خائفة كما لو كانت قد رأت جدران البيت تنهار وتنقضّ إلى الأرض. وانفجرت باكية كما لو كان كل أفراد عائلتها التى تعيش فى الريف، قد ماتوا فجأة جميعاً.

أرنالدو فراتيللى:

ولد فى سنة ١٨٨٨. واشتغل بالتدريس فى مدرسة ثانوية، ثم انتقل ـ كالمعتاد ـ إلى الصحافة والنقد. وقد ظهرت قصته التى نختارها له فى مجموعة قصص ظهرت فى سنة ١٩٣٤. وكتب روايات أثارت الاهتمام، عالج فى إحداها مصير امرأة ساقطة ما تزال تنشد الحب الحقيقى فتخطئه، حتى إذا وجدته اقتحم الموت مسرحها.

وفى عمله حس قوى بالسخرية المريرة.

«مغامرة فى الليل» بالرغم من جنوحها نحو «العواطفية» وتلك فيما نحسب سمة من سمات المزاج الإيطالى البارزة بانفعاله السهل وطيرانه نحو الإغراقية والمغالاة، بل بلغته الموسيقية المجنحة المغموسة بالاستعارة والتورية والتشبيه ـ إلا أن القصة مع ذلك تقع على أزمة لها أصالتها، وإحساس بالفقد لا تعويض له، والقسوة الصخرية التى ينكشف عنها وجه الحياة، أحيانا، كأنها الجمود الحجرى العتيق الذى يرين على جبل «الأقصر» فى صعيد مصر بما فيه من قبور قديمة منقورة وفاغرة، ما تزال موحية بأمجاد كأنها أمجاد حب مفقود. والولائم الملونة المنقوشة على الجدران فى قلب الجبل تثير فى قلب الغريب المحروم، المكظوم، شهوة للحياة كادت أن تخبو، لكنه يصحو فإذا هى رسوم جامدة، أقنعة لا دم فيها، وقد سخرت منه، وخدعته، لكنها أيقظته وردّته للحياة، مثقلاً بالحبوط، صحيح، ولكنه على ذلك مردود إلى الحياة.

« مغامرة فى الليل »

« أرنـــالـــدو فراتيللـــى »

عـاد إلى الفندق عند العشـاء. كـانت الرحلة قـد أجـهـدته، وكـانت تأمـلاته عن المـوت قد أحـزنتـه. وعندمـا دخل الحـجرة التى كـان سـائر النزلاء يتناولون فيها عشـاءهم، وفى نيته أن يحـذو حذوهـم، غلبـه على أمره فجأة شعوره بعقم سلوكه وقلة جدواه. كانت الحجرة متألقة، لامعة الأضواء، تذكره بأحد القبور التى زارها اليوم فى «طيبة». نفس الضوء الخشن القاسى من المصابيح الكهربية التى تضئ الصمت الثقيل فى تلك البقعة المدفونة فى الجبل، تضئ الصور الحائطية لمشاهد ولائم تضطجع فيها شخوص لا حراك بها أمام أكوام من الطعام الموضوع أمامها، وجبة من الطعام عقيمة لا جدوى فيها أمام أشباح تصلبت وتجمدت طول الأبد. فأحس كما لو كان ميتاً فى عالم من الموتى. وقسر نفسه أن يمشى عبر الحجرة إلى مائدته المعتادة. لم تُجْدِه رحلته إلى مصر نفعاً. ما كان أغباه إذ خيل إليه أن باستطاعته أَن يستعيد الخيوط التى أفلتت منه، فى نسيج حياته، بأن يزور المعابد والقبور بين أغرابٍ لا وجود له بينهم، فيما يتعلق بكل ما يهمه، وفى أرض لا تبدو فيها كل التغيّرات والتطورات الإنسانية إلا تراباً متراكما من تراب القرون. سيعود إلى إيطاليا على الفور، من الغد...

جاءه الجرسون الألمانى وهو يبتسم ابتسامة أدخلت عليه البهجة، وأفضت إليه بحس من الدفء. كان قد طلب الوحدة، لكنه أدرك الآن أنه لا يقوى على احتمالها. وقال الجرسون:

– وصلت اليوم سيدتان إيطاليتان.

ثم أضاف بلهجة توشك أن تكون حميمة:

– وقد وضعتهما هنا على المائدة التالية.

استدار لورنزو ليراهما، فلم يجد أحداً.

- لم ينزلا بعد. السيدة والآنسة مانوتشي، من فلورنسا. هل تعرفهما؟ وقد أخذا الحجرة المجاورة لحجرتك أيضاً.

فقال لونزو، بلهجةٍ تنمّ عن الضجر:

- سأترك الأقصر غداً صباحاً.

وأخذ يتناول طعامه دون شهية، لم تكن لديه رغبة فى الطعام بأكثر مما لديه رغبة فى أى شىء، ولم تكن له أدنى رغبة فى ان يلقى أناساً سيفترق عنهم فى اليوم التالى، ولا أدنى ميل أو انعطاف إلى النساء إطلاقاً، منذ أن ماتت زوجته من سنة، وهى امرأة قد علمته - وهو الرجل - كيف يمكن أن يكون الحب، المرأة الوحيدة التى أحبها حقاً، ومنذ أن ذهبت انتهى كل شئ. كان ما زال يعيش، من أجل ذلك الجزء منها الذى يحسه نشطاً حياً فى ذهنه وجسمه، ولكنّ إحساساً دائماً بالمعاناة والألم يصاحبه، إحساس الوحشة إذ لم يعد له ما يعيش من أجله. وإذا حدث أحيانا أن شاقه شئ ما، مما يحيط به، جاءت لينا، على غير انتظار، أمام عينيه.فيعود كل شئ خاوياً، ويحس شيئاً كالتبكيت فى ركن مظلم من ضميره. لقد سقط بينه والعالم قناع كقناع الموت، وجعل، وهو مخدور مغمّى عليه، يرقب العالم يواصل حياته، ويواصل المتعة بحياته، يعانى ويحب و يكره، يرقبه أحياناً بتقزز وسخرية. أما الآن، وقد أخذ ينظر إلى هؤلاء الأغراب الذين شاركهم الحياة فى الأيام الثلاثة الأخيرة - وإن كان كل ما قام بينهم من اتصال لم يتعدّ تلك الانحناءة الصغيرة التى تقوم بها الدمى ـ فقد أحس أن من المستحيل أن يكون لهؤلاء الناس ثمة روح. أما ذلك الذى تلوح عليه أمارات الحياة النشطة الفعالة

منهم، كذلك الرسام الفرنسي مثلاً، بشعره الضارب إلى الشيب، فهو يحنقه ويثيره على الفور. فيم كان يتحدث الآن، بهذا الصوت المرتفع، إلى السيدة الأمريكية الشابة؟ كانا، كلاهما، لا يطاقان. وكان لورنزو على وشك أن يتأهب للخروج، عندما مرّ أمامه ظلان خفيفان مستضيئان. وأدرك ان المائدة المجاورة لم تعد شاغرة. فاسترق نظرةً محتاطة إلى القادمين الجديدين.

كانا يبدوان، من الجانب، نسختين من ميدالية واحدة: إحداهما حديثة السك، أما الأخرى فقد نال منها بعض الشئ طول الزمن. وكان واضحاً أنهما بنت وأمها، فقد كانتا متشابهتين تماماً فى الملامح والقوام والجسم، بالرغم من الفرق الشاسع فى السن، هذا الفرق الذى يحيل الجمال إلى قبح، ويشيخ به ما كان غضاً، ولعل الأم ما كانت تتجاوز الخمسين من عمرها، إلا أن كتفيها كانتا محنيّتين قليلا، وتبدو – تحت جيبى عينيها المنتفختين، شبكة من التجعدات الدقيقة. أما البنت فقد كانت تضوء بكل سناء الخمسة والعشرين عاما. وقد كانت لتبدو جميلة عند لورنزو لو أنه لم يتخيلها فجأة فى سنّ المرأة الجالسة إلى جانبها، فلم ير ما تنزله خمسة وعشرون عاماً أخرى من الضر بشعرها الفاحم السواد، وبالانحدار الخفيف الرشيق فى كتفيها، وبهذا الإهاب الناعم المسرف الغضوضة، وذلك الامتلاء الجذاب الآن فى وجنتيها تحت هاتين العينين الكستنائيتين. نعم. لقد أثار شئ ما فيها اهتماماً تلقائياً غير واعٍ عنده، من أول نظرة، وأحس بهذا الشئ كما لو كان قد تلقى ضربة. ولعل ذلك شبهها بلينا شبها بالتأكيد أخذ يتضح الآن، ويوقظ عنده ألماً جسمانياً تقريباً.

أحست البنت بأن عينيه ترقبانها، فنظرت إليه. وكانت عيناها تعبران عن اللامبالاة، لم يكن فيهما شئ من الحياة الداخلية الحادة اليقظة التى كان يحبها فى عيني الأخرى. لم تكن إلا امرأة عادية، واحدةً من كثيرات. وحنق لورنزو من نفسه، لتلك النتفة من الاهتمام التى أولاها إياها. فنهض متعجلاً، وترك الحجرة، ومضى إلى الدور العلوى. وهو يعرف مع ذلك أنه لن يقوى على النوم. فالأرق يستبد به، كل ليلة، والهذيانات التى تصاحب الأرق. فجلس على الشرفة، وأخذ ينظر إلى النيل، ينشق هواء المساء الوديع.

كان الجو جافّاً دافئاً في يناير هنا، كما لو كان فى روما، فى مايو، وكانت الأزهار فى حديقة الفندق تعبق بدفء عميق. والقمر عالياً فى سماءٍ شفافة، يضئ النهر، والوادى المخضوضر المظلم، وأشجار النخيل، والجبل القاحل قبالته، تخترقه ثقوب قبور لا عداد لها، حتى يبدو طافياً فى السماء، كجبل يُشاهد فى الحلم. وكانت سكينة الليل قد ابتلعت الأصوات الأجنبية التى كانت تأخذ بأسباب الحديث على الشرفة تحته. ثم أخذت أصوات الفندق تغيض وتخفت تدريجياً. وانفتح باب الغرفة المجاورة ثم رُد، وجاء من باركيه الأرضية صوت زياق، من وقع قدمٍ تخطو فوقها، ثم الصمت. لابد أن الوقت قد تأخر جداً، فعاد لورنزو إلي غرفته، ورمى بنفسه على السرير.

وعندئذ أخذت جارته تتحرك. مشت عبر الغرفة، وفتحت درجاً، وأجرت الماء فى الحوض، وأجابت بصوت مرتفع عن شئ ما قيل لها من الغرفة الأخرى:

– لا، لن أقوى على النوم أبداً... فما أجمل هذه الليلة...

وضحكت ضحكة صغيرة مكتومة غضّة.

ارتعش لونزو، وأحس بالدماء تغيض، وتتسرب من شرايينه كلها، ومات قلبه، كما لو كان يختنق. كان ذلك صوت لينا، وقد بطَّنه بُعْد المسافة قليلاً، صوتها عندما كانت تحدثه بالتليفون كل صباح، فيسألها: هذه أنت؟ وتجيبه لينا بعد لحظة صمت: «نعم». كانت «نعم» صبيانيةً طفلية، ثم ينكسر الصوت فجأة في ضحكة صغيرة كتلك التي سمعها الآن تماما، غضة ومكتومة. ومنذ ذلك الحين كان يرتعش كلما دق تليفون المكتب، وهو مايزال يرتعش الآن، بعد مرور سنة، عندما يدق التليفون لحديث من أحاديث العمل، وإن كان الصوت، في الطرف الآخر، لم يعد هناك.

كان يرتجف الآن من الترقب والانفعال، حياته كلها معلقة بخيطٍ ذلك الصوت.. الصوت يرتفع الآن، ويتهاوى في إيقاع، كما لو كان يحاول استعادة نغم من النغمات. وكانت الأغنية خافتة، لا تكاد تسمع من خلال الجدار، نتيجة لاختلاطها بصوت الأرضية التي تتقلقل تحت خطوات جارته. تغني بصوتٍ خفيض ناعم حتى لا تقلق الفندق النائم. ثم بدا أن الصوت قد نسي الليل، وارتفعت نغمته قليلاً، ثم انطلق. وكان في وسعه الآن أن يميز الأغنية، والكلمات أيضا.. كانت أغنية مونت فردي: «دعني أموت! ماذا يعزّيني عن قدري القاسي... عن ألمي الكبير».

إلا أن الصوت كان مخافَتاً به مازال، ما يكاد ينفذ من الجدار، لكنه كان يتضمن عمقاً من المعاناة والألم، حتى كأن الأغنية الخافتة ترتفع في صيحةٍ من العذاب، وترسل في قلب الصمت رجفةً من الألم.

ترددت الكلمات: «دعني أموت»! ولكن غطى عليها الآن صوت

رشاش الماء المنساب. كانت جارته تقوم بمراسيم التواليت. ثم أخذت تغنى ثانية، أغنية مرحة بهيجة فى هذه المرة.

كان لورنزو قد وثب من سريره. ووقف، وقد غاص فى ظلمة انفعاله، وقد ثبتت عيناه بخيط من النور يلمع من ثقب المفتاح فى الباب المغلق الموصل بين الحجرتين. لينا. نعم، إن البنت التى تقطن بجواره، بهذا القرب الوثيق، كانت هى لينا. نفس الصوت، نفس عادة الغناء لتخفف من ضغط مشاعرها. نفس المزاج الحبيب الهوائى، هى فى أعمق أحزان اليأس الآن، وبعد لحظة واحدة سعيدة بالحياة وأمامها عيد من الأحلام والقصور فى الهواء. وشعر بموجة من الحنوّ تغمره الآن، كما كانت تغمره عندما يرقبها، فى حياتها. وينتشى بكل مظهر من مظاهر أنوثتها ووجودها.

وكان صوت رش الماء على الوجه والذراعين قد ابتعث فجأة أمامه رؤى حياته الحميمة معها. رؤى لم يكن قد جرؤ أن يتذكرها طوال سنة كاملة، بل كان يردها عنه، مروّعا، وهى توشك أن تتشكل فى أعمق أعماق ذاكرته. وأحس كأن لساناً من اللهب يخطف فى نخاع ظهره. إنها لينا. يتمتم إنه يراها مرةً أخرى.

فاقترب من الباب وهو يرتعش، ووضع عينه على ثقب المفتاح. ورأى ضوءاً غامض المعالم يكشف عن ركنٍ من الغرفة، حقيبةً مفتوحة على كرسي، ومشجب تتدلى منه بضع ملابس أنثوية. كان حوض الماء قريباً من الباب، فى خارج ميدان رؤيته. ثم خطف بعينيه ظل وردىّ اللون فى الضوء الغامض، شئ من جسدها. لعله ذراعها. ثم انطفأ النور بغتة. جسدها. مثل جسد لينا. وعذبته رغبته فى لينا. فرمى بنفسه على السرير، وقبض على الوسادة، وغاص

بأسنانه فيها، يعضّها. كان عذاباً من الرغبة المحرقة والرقة والحنو الذى يستغرقه. لكنه كان يعيش، على الأقل. يعيش مرة أخرى. بكى، وراح ذهنه يحوم، ويهوّم فى تخاييل وتهاويل تزداد إغراقاً فى الإيهام. وجاء الفجر الساكن المليئ بالسلام فوجده ما زال يقبض على المخدة.

وعندما نزل للإفطار سأل عن السيدتين الآتيتين من فلورنسا، فعرف أنهما قد طلعا في رحلة، ولن تعودا على الأرجح إلا عند العشاء. وبدا له اليوم فجأة خاوياً وعقيما. وأخذ يتسكع هنا وهناك، في قلق، وحاول أن ينام بعد الظهر ليسكّن من قلق الانتظار. وقبل مغرب الشمس خرج.

وبينما كان يعبر الحديقة رأى البنت. كانت تقف ليرسم لها المصور أحمر الشعر صورة بالقلم الرصاص. وكانت الأم تجلس على مبعدة بعض الشئ، تقرأ كتابا. وأحس حقداً حقيقياً لهذا الفرنسىّ الذى يستغل تصويره الردئ مصيدة يقتنص بها أكثر الطيور العابرة بالفندق جمالاً وجاذبية. وقد رأى ثلاثاً منهن، أغوتهنّ الحبالة، فى الأيام الثلاثة الماضية، وها هى الرابعة. وعرف أنها ليست لينا. لينا كانت تختلفُ عنها تماماً. لكن تشابه الصوت، وجوهراً داخلياً ما فى كليهما، وشيئا لا تحديد له فى الوجه والقوام، كل ذلك كان يجتذبه نحو البنت، على نحوٍ لم يكن ليعبر بذهنه أنّ فى الإمكان حدوثه مرةً أخرى. وكان ما يزال يشعر فى قلبه، وعصبه، بهزة المحبة والرغبة التى أثارتها فيه جارته.

جلس على بعدٍ قليل منها، وحاول، دون توفيق، أن يسترعى اهتمامها. فلم تنظر الفتاة إليه إلا مرة واحدة، كما لو كان ذلك

صدفة وعَرَضا، وعلى وجهها تعبير اللامبالاة المألوف. وأصغى إلى حديثها مع المصور: نفس الثرثرة المعتادة من فتيات المجتمع الصغيرات. وأدهشه أن نغمة صوتها الآن تختلف عما سمعه منها في سكون الليلة الغائتة. كان صوتها جافاً، يكاد يكون صوت رجل، ويوشك أن يكون خشناً قاسيا. وضحكت مرة، فبدت له طريقة ضحكها ايضاً مختلفة عنها بالأمس.

ولكن الأمر قد يختلف إذا حادثها. وانتظر في عذاب من الترقب، حتى ينتهى الرسام، إلا أن شابين أمريكيين جاءا، في تلك اللحظة، ليأخذا الفتاة وأمها. واستخلص لورنزو من حديثهم أن الشابين يدعوان السيدتين للعشاء في فندق آخر، حيث يتلو ذلك رقص.

قال الجرسون: إنك لم تسافر اليوم، بالرغم من كل شئ، يا سيدى.

فأجاب لورنزو بتبرم: لا، ربما في الغد. لكنى لا أعرف. إننى أنتظر خطابا.

سار طويلاً في شوارع الأقصر المظلمة المهجورة. وأحس نفسه وحيداً، ضائعاً، كما لو كان عند تخوم الأرض القصوى. وجلس في حديقة الفندق ينتظر عودة الفتاة، حتى وقت متأخر. ثم صعد إلى غرفته، وواصل سهره. لم تصدر نأمة عن الغرفة الأخرى. فتمدد على السرير، وعيناه مفتوحتان في الظلمة، في اتجاه الباب الموصل بين الغرفتين. لم يظهر خيط من الضوء في ثقب المفتاح... وكان ذهنه ثقيلاً مشوشاً، وعيناه مكدودتين من جهد المراقبة. ومرت أمامه تصورات غريبة كالأحلام، لكنه كان يعرف أنه يقظ. ثم سمع ضجة مفاجئة ، وحديثاً مرتفع الأصوات، وحركات في الممر، وأحس أن

الضوء الساطع يغمره. فتيقظ بغتة، وقفز من السرير، ومازال عيناه ملؤهما النعاس، وذهب إلى الشرفة. كانت الشمس قد علت فى السماء. لابد أن الساعة قد بلغت التاسعة على الأقل صباحاً.

وكان بوسعه ثانيةً ان يسمع صوت لينا من الغرفة الأخرى، منطلقاً فى عنفوان أغنية. كان صوتاً رائعاً عجيبا، يبدو أكثر طراوة وغضاضة وحلاوة من قبل، ولم يستطع ان يلتقط كلمات الأغنية، ولم تكن النغمة غريبة عليه، ولعل فيها شيئاً من الارتجال والغناء التلقائى. وانتظر لورنزو، حابساً أنفاسه. كان يعرف الآن أن الفتاة هناك. بل سوف ينتظرها على الباب، ليتبادل معها الحديث. ولكن لعلها تفتح نافذتها للشمس.

انفتحت النافذة بالفعل، وانطلق الصوت منها، متحررا. وظهرت ذراع ينكشف بها لحم لم يعد غضاً، ولا صغيرا، ورأس تشتت شعره على جبهتها، ونظرت إلى النهر. ولابد أنها أحست أن أحداً يرقبها، فقد استدارت بحدّة، وصمتت لحظة، مرتبكة. ثم ابتسمت، وأطلقت ضحكة الأمس الصغيرة.

وقف لونزو أيضاً، وقد اختلط عليه الأمر. وكان يبدو له، فى لحظة الصمت تلك، أن شيئاً ثقيلاً يسقط، ويضغط على ذهنه. الآن حقاً انتهى كل شئ.

وسأل، حتى يبدو بمظهر الشخص خلىّ البال:

– هل كنت انت، يا سيدتى، التى تغنين الليلة الأخرى؟ لقد ظننتها بنتك.

– هل أقلقتك؟

– أبداً. إن لك صوتاً بديعاً.

ثم أضاف بعد لحظة:

- جعلتني أتعذب قليلاً، بسبب ذكرى. ولكن خيل لي أنك لابدّ تعذبت ايضاً... أغنية مونت فردي تلك...

- أشياء بعيدة الآن يا سيدي العزيز. إنني الآن عجوز. أغنّي بقوة العادة فقط.

كانت قد انتهت من تمشيط شعرها، وهمّت بالعودة إلى غرفتها. ولكنها، حتى لا تبدو جافية السلوك، سألته:

- هل أنت إيطالي؟

- نعم، من روما.

- هل تمكث طويلاً في الأقصر؟

- لا، سأسافر اليوم، بقطار الظهر.

- أوه، اسمح لي. ها هي بنتي تحاول ان تستعجلني.

- بالطبع... بالطبع!

وردّت النافذة.

ألبرتو مورافيا

ولد في روما سنة ١٩٠٧. كانت زوجته الأولى كاتبةً إيطالية بارزة هى إلزامورانتي. وقد حظر نشر كتبه وتداولها فى العهد الأخير من الفاشيةّ. فى إيطاليا. واضطر إلى الهرب إلى منطقة الجبال أثناء الاحتلال النازي. ويتمتع مورافيا بشهرةٍ واسعة فى خارج بلاده.

مورافيا كاتب طويل النَفَس، يهوى ملاحظة الأشياء الدقيقة، ويستمتع بها، سواءً كانت نظرةً لا تستغرق لحظة واحدة، أو كلمة عابرة، وإن كانت دالة، أو موجة صغيرة مضطربة محملة بنفايات البحر، او ركناً فى حجرة عطنة الريح. فعينه بارعة فى التقاط التفاصيل الصغيرة، وتشييد بناءاته الروائية منها. وله مقدرة سحرية، بتغيُّر نبرة الصوت، وتركيب الكلمات فى جملة او جملتين، على ابتعاث الأجواء التى يحيا فيها أشخاص أزمةٍ واحدة متطاولة مشتركة، هى أزمة الجنس المحبوط، المهروس بين تروس المدنية المعاصرة وتشابكات القيم الاجتماعية، واصطراعات الأفكار والمذاهب. عنده حساسية بأنواع معاناة الطفولة.، وآلام الصبا الأول، حساسية مرهفة راجعة بلا شك إلى مرضه الطويل في طفولته.

ليس مسرح رواياته الشوارع الجانبية والبيوت القديمة والأراضى المبهمة الخاوية وأنقاض المدن، بقدر ما هو التواءات النفس والأحزان القديمة المزويّة فى أركانها، وصنوف الخيبة والحبوط، والخواء، وضعف الجسم أمام نزوعاته نفسها.

وهو يَغُور بعيداً، ينقّب فى طوايا النفس، على بصيرة، تنقيباً صابراً دؤوبا، كأنه چيولوچى يكشف بلمساته الحساسة، قشرة بعد قشرة من أرضيةٍ موارة متقلبة دينامية.

على أن حسه بالمسألة الاجتماعية حس يقظ، بل موجع، سواء كانت تتخذ عنده مظهرها السياسي أو الاقتصادي أو الحضاري، وارتباط أشخاصه بمجتمعهم عروة وثيقة معقدة، وعالمه بلا شك هو العالم الأوربيّ المعاصر الذي ماتزال مشاكله ساخنة فعّالة نابضةً بالأزمة، والناس في رواياته يعانون محنة حسيتهم الجنسية المتطلبة، دائماً، في ظلال هذه الصروح الاجتماعية المتقلقلة. الزلازل النفسية والاجتماعية تصل إلينا، على صفحاته، خفقاتٍ مرهفة حادة نفاذة، وإن كانت هينة مرتعشة دقيقة.

ليس في كتابته دعوة إلى خلقية ما، ولا حس بالمأساة في معناها الملحميّ، ولا سخرية. فكأنه يرى الناس ينافحون أنفسهم، وظروفهم، بنظرة محايدة صادقة وإن كانت حزينة، دون بكاء ودون ضحك أيضاً، ودون فخر أساساً، كشخصٍ قد عاش كثيراً وعاني كثيراً: فهو يترك في الفم مرارةً صغيرة، ويترك في النفس استبصاراً بالإنسان، وعقدةً صغيرة من الحيرة والتساؤل.

«العودة إلى البحر»

ألبرتو مورافيا

كانت الأرض منبسطة مسطحة، والمروج الفسيحة تتناثر فيها زهور الأقحوان الناعمة البيضاء. وكانت غابة الصنوبر تحف المراعي عند الأفق، بحائط طويل لا ثغرة فيه، من الخضرة الصلبة التي لاحراك بها. السيارة تشق طريقها ببطء ، كما لو كانت تسير على غير رضىً منها ، تندفع وتثب فوق الحفر، في الطريق غير المهّد. وكان بوسع لورنزو أن يرى من الزجاج الأمامي، كتلة الصنوبر تأتي لتلقاه، كما كما لو كانت تتحرك نحوه، في كآبةٍ وغموض، معادية له. وكان لورنزو قد نظم هذه الرحلة ليسترضي زوجته ويصالحها. لكنه كان يحس الآن، بإزاء صمتها الثقيل الراسخ، أن الخجل قد غلبه على أمره. إلا إنه قال إذ كانا يقتربان من أشجار الصنوبر:

– ها هو الصنوبر.

ولم تجب زوجته. فرفع يده، وأصلح من وضع المرآة فوق الزجاج الأمامي كان قد أمال المرآة، عندما بدأ السير، نحوها. ولم يكف خلال الرحلة كلها عن أن يرقبها. وكانت قد جلست، حازمة منتصبةً ثابتة، ويدها، في القفاز، على الباب ومعطفها مطوى على ركبتيها، وقميصها الكتاني الأبيض مفتوح حتى النهد، وكان عنقها الرقيق يرتفع من فتحة القميص، كأنه ساق نبتٍ رشيق، وكان النمش على وجهها الذي لوحته الشمس. وفمها الأحمر، والزغب الناعم على شفتها العليا، يضفي عليها قناعاً من الشهوانية الحسيّة الخفيّة . لكن عينيها، الصغيرتين، السوداوين، تحدقان بعناد إلى الأمام، وارتفاع شعرها عن جبهتها، إلى أعلى يكسبها مظهراً عداونياً صلبا جافّا. كان فيها ما يشبه القطط، فيما كان لورنزو يحسّ، لايبدو من ملامحها بقدر ما يبدو في ذلك المظهر الحزين المتداعي البرىء –

مظهر القردة الصغار، وكانت تتظاهر- كالقردة - بالكرامة المهيضة، وتعرف تماماً أن لاقدرة لها على هذا التظاهر.

وكان الصنوبر الآن ، يبدو، اذ يقتربان منه، أقل كثافة. وسيقانه الحمراء تميل كما لو كانت متهاوية أحداها على الآخرى. وخرجت السيّارة عن الطريق، وسارت في متسع من الأرض الخواء الناعمة التربة، وجعلت العجلات تقفز عليها قفزاً رفيقاً هيّنا. كانت غابة الصنوبر مهجورة، وكانا يريان هنا وهناك، في الظل، خصّاً أو شاليه مقفل الأبواب والنوافذ، غير مسكون. ثم ضوّأت الغابة، وإذا بالهواء يستنير، ويستبين فيه اهتزاز مرتعش: البحر.

وقد كان بود لورونزو أن يعلن مقدم البحر، كما أعلن مقدم الغابة، لكن صمت زوجته. فيما يبدو له، كان قد قد ازداد رسوخاً وتصميماً. وكان يعرف أنها لم تكن لتقاوم رغبتها في الرد الجافي عليه - فقد كان مشهد البحر يبعث فيه سروراً حقيقاً أصيلا. ،لذلك فقد لاذ بالصمت، وواصل قيادة السيارة على الأرض العارية الخواء. ثم وقفت السيارة. ولبثا لحظه، دون حركة، في ظلّ غطائها الواطىء. لم يكن بمقدورهما أن يريا البحر تماماً بعد، وإن كان بوسعهما أن يسمعاه، عند توقف المحرك، بهمهته المتسقة المتباينة الأصداء، كما لو كان لكل موجة فيه نغمة خافتة. وقال أخيراً: هل نخرج؟

فتحت زوجته الباب، وأخرجت ساقيها ، يعرقلها في ذلك ضيق «الچوب» وتبعها لورنزو، وأقفل الباب. وأحسّا على الفور بريح البحر، قوية دافئة عنيفة، تثير سحباً من الرمل والتراب عن الأرض الخشنة الوعرة.

- تنزل للبحر؟

– نعم ، بالطبع.

فذهبا نحو الشاطىء ، عبر الطريق. وكانت القنابل قد أتلفت جانباً كبيراً منه، والفجوات الفاغرة تنفتح هنا وهناك فى سطحه المرصوف. وماتزال بضعة أعمدة قائمة، أما سائر الأعمدة التى كانت تقوم على جانبيه فقد قُذف بها إلى الأرض وأخذت الرمال تغطيها، وقد هبت بها الرياح، فألقت بها فى ألسنة طويلة تصل إلى منتصف الشارع. وعندما نظرا ناحية الشاطىء، رأياه وقد تقاطعت على سطحه الأسلاك الشائكة. وكانت الريح تهب تحت الأسلاك الشائكة، وتسوّى الرمال تحتها. وكانت تلك الخيوط المتشابكة من الصلب تنبثق منها الأشواك المعدنية الحادة، وتمتد مغلّفة بسحابة بيضاء ثائرة من التراب، حتى مغيب البصر فى البعد.

وجداً ممراً تقوم على جانبيه أعواد ضخمة من الخشب، للتوجيه، خلال الأسلاك الشائكة، يصل إلى البحر: وترك لورنزو زوجته تسبقه، وتبعها على بُعدٍ قليل. حتى يراقبها على مهل، كما كان يراقبها من المرآة وهما فى السيارة. وبعد أن أفلح فى حيلته تلك، طاف بذهنه أن أفجع شىءٍ فى مصائبه كلها، هو هذا الهوى الذى جاءه متأخراً غير منتظر، يخامره الآن نحو زوجته. لم يكن يحبها فى بداية الأمر، فقد تزوج متعجلاً، فى سبيل مستقبله السياسىّ. أما الآن، وقد انتهى هذا الحظّ الصاخب الخاوى الذى صاحبه، وبهره، لسنين طويلة، فقد أحبّها، بينما لم تعد لها بحبه حاجة. اشتعل فى دمه نوع من الشهوة الكاوية، شىء فيه خجل وحرج، كما لو كان حييًا. وكان إذ يتبعها يجد نفسه يرقبها برغبةٍ حزينة جافية خام أدهشته. كانت طويلة، نحيلة، أنيقة، غلاميّة، وكانت ساقاها الطويلتان القويتان، تبدوان

متينتين ضخمتين بالقياس إلى جذعها الرقيق، وتتحركان فى غير رشاقة على الرمل غير الممهد، فتتذكران بساقىْ فرسٍ صغيرة وَحِلة. وأثارت فيه هاتان الساقان اهتماماً خاصاً، بما عليهما من شعيرات لاعدّ لها تبدو له من خلال الجوارب الشفافة، شعيرات طويلة سوداء تبدو له كما لوكانت قد لُصقت بالجلد، مسطحّة لا حياة فيها. وعندما رفعت يدهما لتسوّى شعرها وقد شتته الهواء، خيل له أنّه يرى سواد إبطيْها من خلال القميص الكتانىّ الرقيق، فشعر بكرب واضطراب شديد.

وصلا إلى البحر. وكانت الريح تدفع على الشاطىء أمواجاً متطاولة هادرة، تتدحرج إحداها على الأخرى، أما البحر نفسه، على بُعدٍ قليل، فقد كاد أن يكون هادئا، وبه خطوط متناوبة من الخضرة الداكنة والزرقة العميقة الضاربة إلى الاحمرار. وقف لورنزو إلى جانب زوجته، ينظر إلى الأمواج، والتقط ببصره آخر موجة يستطيع أن يمد إليها عينيه، عند بدء ميلادها، وتتبعها إذ تنهض وترتفع، وتنقلب على حاجز الموجة التالية، وتتجاوزها. وعندما كانت الموجة تتمهل وتبطىء، وتضيع فى الجَزْر الناكص، وتموت عند قدميه، وثب نظره عائداً إلى البحر، ينشد موجة أخرى. لم يكن يدرى لم كان يصبو إلى أن يرى كتلة واحدة على الأقل، من هذه الكتل المائية التى لاعدد لها، المنكسرة على الشاطىء، تظهر على الأمواج الأخرى الراجعة التى تعوقها وتردها، وتنتصر على المدّ الذى يؤخرها، والجزر العائد إلى البحر، وتنقذف على الساحل، وتمر عليه هو وزوجته، وترتفع على الشاطىء كله، وتكتسح دفاع الأسلاك الشائكة والأرض الخواء، برغوتها المزبدة المترامية إلى بعيد. لكنها كانت رغبة لا

استجابة لها، وأدرك فجأة لِمَ كان يتمناها بكل هذا الاحتدام. كان في طفولته يهوى أن يراقب اندفاعات الأمواج المتطايرة فى الأيام العاصفة الهوجاء، وكان عندما يرى موجة ضخمة قوية تنبسط بسرعة على الشاطىء، حتى تصل إلى أعشاش الاستحمام، يقول لنفسه بطموح: «سوف أصبح مثل هذه الموجة». وهز رأسه بقوة ليطرد عنه هذه الذكرى، واستدار لزوجته وسألها: مبسوطة؟ راضية؟

فقالت من غير اهتمام:

– من البحر؟ ليست هذه أول مرة أراه فيها، كما تعرف. أليس كذلك؟

كان بودّه أن يشرح لها مشاعره. أجل، وأن يحكى لها عن خيالاته الطفليّة، لكن نوعاً من الخجل الذى لا أمل فيه عاقه عن الكلام. وأحس حافزاً قوياً لأن يحرر نفسه من هذا الهمّ الذى يقيّده ويشغله، وأن يبدو على الأقل بمظهر المرح الخليّ البال، فانحنى والتقط حصاةً من الشاطىء، ليقذف بها إلى أبعد ما يستطيع. وكان يأمل أن يُفضى عنف حركته إلى أن يقذف بالألم من نفسه، وبالحصاة، إلى أقصى مايستطيع . لكن الحصاة كانت خادعة. كانت فى حجم قبضة اليد، لكنها كانت خفيفة، مساميّة، تتخللها الثقوب الدقيقه. فسقطت بالقرب منه، وراحت تطفو على قمة موجة وافدة، وعادت إليه، وقد رمت بها المياه تحت قدميه. فأحس بمرارة، كما لوكانت تلك هى إجابة الواقع على كل أمنيّاته. كانت معاناته تشبه تلك الحصاة الخفيفة المساميّة، ولم يكن بمقدوره أن يقذف بها بعيداً، فسوف ترجع إليه أبداً مع الحطام والنفاية السوداء يتقيّأها البحر الهائج إلى الشاطىء.

اقترب من زوجته، ووضع ذراعه حولها. كان يريد أن يمشى معها لى حافة البحر، تهبّ الريح المنعشة عليهما فى تلك الوحشة لصاخبة التى تتكسر فيها الأمواج على الشاطىء. لكنها دفعته عنها عناد، وقد باغتتها حركته:

- مالك؟ ماذا جرى لك؟

- ألاّ تريدين أن نتمشّى؟

- لا. الهواء شديد.

فقال :- إننى، أنا، أحب الهواء.

وخطا بضع خطوات على الساحل وحده. أحس إنه يسلك سلوكاً طائشاً يائساً غير معقول ، كالمجانين. وزاد إحساسه بالجنون اصطفاقُ الموج، والريح التى تهب فى شعره، وفى عينيه وطاف بذهنه، في هدوء: «فقدت صوابى تماماً» وأخذ يسير نحو كومة صغيرة من الرمال تراكمت على شىءٍ ما، صدىء ومهجور.

وسمع زوجته تسأله فى ضيق: ماذا تفعل؟ أين تذهب؟ توجد ألغام مرميّة هنا.

فأجابها وهو يهزّ كتفيه: ماذا تهمنى الألغام!

وقد كان بودّه أن يكمل «أو حتى إذا انفجر فىّ لغم» ولكنه صمت، تواضعاً. واستدار ليرى ماذا تفعل زوجته. كانت ما تزال تواجه البحر، يبدو عليها الضجر، ولم يقرّ عزمها على شىء.

ثم قالت: لاتحاول ان تمثل دور البطولة. أنت عارف أنك تحبّ الحياة.

باحتقارٍ جارح، وظالم فيما يبدو. فوثب إليها راجعاً، وأمسك بذراعها: يجب أن تصدقينى عندما أقول، فى هذه اللحظة، إننى لا

أهتم أدنى اهتمام بالموت . بالعكس، أننى أرحّب بذلك، فى الواقع.

كان يعتصر ذراعها المدوّرة الراسخة اللحم، بعنف ، وأحزنه سهولة ما أن يتحول يأسه إلى شهوة، بمجرد أن يلمسها، فيجعله كاذباً بالرغم من نفسه. دفعته فى ضيق:

– دعنى وشأنى.. نفس الحكاية القديمة.. وعلى أىّ حال..

ثم قالت بعد فترة:

– افعل ما بدا لك، لكنّى لن أتبعك. فليس لى أدنى رغبة فى الموت، أنا.

فتركها لورنزو، واتجه متعمداً نحو الكومة الصغيرة: وغاصت قدماه، وامتلأ حذاؤه بالرمال. ولم تكن الكومة لتبعد عنه بأكثر من خمسين ياردة، فوصلها، ووجد أنها لم تكن أكثر من صفيحة بترول قديمة، تآكلت وصدأت من البحر، وقد ملأتها الريح بالرمل حتى ثلاثة أرباعها. وكان الشاطىء يمتد حتى مغيب البصر، تكسحه الريح، وتقطعه الأسلاك الشائكة الدقيقة التى كانت تبدو، فى نعومة الرمال البيضاء. كآثار جروح ملتئمة. وتردد لحظة، وقد بهرته أضواء انعكاسات السماء الغائمة، ثم عاد.

لم تكن زوجته هناك، وشق لورنزو طريقه فى الممر الضيق بين الأسلاك الشائكة، حتى بلغ الأرض الخواء. كانت زوجته تقف بجوار العربة، يدها على الباب، ويدها الأخرى على جبهتها تسوّى شعرها، فسألته: ماذا نفعل الآن؟

فاقترح عليها، بلهجة مرحة مبتهجة: فلنأكل إذن.

وهو لا يكاد يشعر بالقدرة على الكلام، دعْ عنك البهجة.

– أين؟

- نستطيع أن نذهب إلى غابة الصنوبر.

ودون أن ينتظر منها إجابة. أخذ السلّة من مؤخرة السيارة، وبدأ يسير نحو أشجار الصنوبر. وتبعته زوجته.

عبرا الأرض الممهّدة إلى بقايا ما كان يوماً مطعماً ساحلياً.

وكانت الجذوع المنتصبة للأنقاض نصف المدفونة تنهض من الأرض المتشنجة في الضوء الغسقي الأبيض، شاحبة باهتة من الخارج، وملوّنة من الداخل، كأسنانٍ بالية. وكان السلم الاسمنتيّ المفضي إلى القاعة الرئيسية العلوية المطلة على البحر، حيث كان الناس يتناولون طعامهم، يرتفع درجة أو درجتين، ثم يقف فجأة فوق فجوةٍ متهدمة تملؤها فوضى متداخلة من بقايا السقف المنهار والحديد الصدىء الملتوى وكتل من المونة والطوب. وكان في الوسع أن تتعرف على الحجرات الأخرى بين الجدران المنقضّة المتفتتة بأنقاضها المتراكمة في عجين ترابي. وسارا حول الهَدَم، وقال:

- هل تذكرين آخر مرة كنا فيها هنا؟

- لا.

- من سنتين. كانت الأحوال قد أخذت تسوء عندئذ، لكن لم أكن أريد أن أواجهها. وكنت ترتدين يومها شيئاً خفيفاً رقيقاً حول صدرك، ومايشبهه حول وسطك ، يمرّ بين رجليك ، وكانت الشمس قد لوّحت بشرتك جداً، وكنت تعتمرين بعمامة حول رأسك.

ثم واصل كلامه، بنبرة، مضغوطة مشدودة:

- أنني أدرك الآن أنك جميلة جدا. ولكني في هذا الوقت لم أكن أراك . لم أكن أهتم بشيء إلا بالسياسة، وتركت كل السفهاء الحمقى الذين يشتبثون بأذيالك ، تركتهم يتحببون إليك.

– ثم ماذا؟

– لاشيء.

كانت تمتد خلف المطعم حديقة صغيرة. وكان العشب الخشن القذر مختلطاً بالرمل. تنمو على حوافّ هذه الحديقة شجيرات كثيفة، وأشجار ملويّة تمد أغصانها كالأذرع. وقد قذفت القنابل بقطعة من البيانو وسط الحديقة، وكانت واجهة البيانو، وبها بضعة أصابع بيضاء، وقطعة ضخمة من الخشب المكسور الناتيء الشظايا، تبدو تماماً كفك حيوان به بضع أسنان فاسدة. وكان العشب حول هذه القطعة تتناثر عليه مطارق البيانو الصغير، المصنوعة من اللباد.

وقد طوّح بجزءٍ آخر من البيانو– هيكله – بين غصني شجرة تبدو كالشوكة، وكانت الأوتار المعدنية تتدلى منه متلففّة متجعدة كشعرات متدلية من نباتٍ متسلق غريب وبشع.

أخذ لورنزو يبحث عن بقعة منزوية، في تصميم مقصود أعمى مركّز، كما لو لم يكن يهدف إلى الحب، بل إلى الجريمة. وتبعته زوجته، على بعدٍ قليل وراءه، ولكنه كان يحسها يتزايد مظهرها عداءً ونفوراً. كانت غابة الصنوبر حافلة بالوديان الصغيرة، المعشوشبة تحف بها الشجيرات والنباتات. وخيل له في النهاية أنه وجد ما ينشده، فقال: نقعد هنا. وانزلق إلى الأرض.

ظلت واقفة برهة، تنظر حواليها. ثم غاصت نازلة، وجلست على فخذيها ببطء، وتصلُّب، واحتقار، وهي تجذب فستانها بسرعة فوق ركبتيها. وتظاهر لورنزو أنه لم يكن ينظر إليها، وأخذ يخرج الطعام من السلّه المملئة بلفّات كثيره صغيرة وكبيرة، ملفوفة بعناية في ورق أبيض ناعم من النوع الذي يُستخدم في محلات الأزياء،

وزجاجة من النبيذ.

- أنت التى عبأتِ السلة؟

- لا، تركت الخادمة تقوم بذلك.

بسط مفرشاً على العشب، ونسّق عليه،فى عناية، البيض، واللحم، والجبن، والفاكهة. ثم نزع سدادة الزجاجة، ووضع السدادة مرة أخرى.

- تحبيّن أن تأخذى بيضة؟

- لأ.

- لحمة؟

- أعطنى رغيفاً صغيراً، وقطعة من اللحم.

فأخذ لورنزو قطعة من الخبز المشطور المغطى بطبقة رقيقة من الزبد، ووضع عليها شريحتين من اللحم، وناولها. فأخذتها فى نوعٍ من، الحيطة والتأفف، دون أن تشكره، وأخذت تأكل بشهية. وكان رأسه محنياً ما يزال، دون أن يرمقها بنظرة، وأخذ بيضة مسلوقة وقضمها بجوع، ثم ملأ فمه بالخبز المغطى بالزبد. أحس نوعا من الجوع، كأنه أسف أو ندم، يشبه ما كان يخامره من رغبة فى امراته. كان الجوع والشهوة معاً ينموان على يأسه، ويزدهران، فيما جال بذهنه، كما لو لم يكن إلا جثّة بلا حياة، تنمو عليها رغباتها، كالشعر الذى ينمو على ذقون الميتّين. وأكل بيضة، ثم أخرى ، ثم ثالثه، تردد لحظة، ثم أكل الرابعة. كان يستمتع بالقضم فى البياض المرن اللين، ويحس الصفار الناعم يتفتّت بين أسنانه. وكان يأكل فى حيوية ونشاط ويضع الزجاجة بين الحين والآخر على فمه ويجرع جرعات طويلة. وأدار اهتمامه، بعد البيض، إلى اللحم: وكان يوجد منه

نوعان، شواء في رقائق كبيرة حمراء، وكوستليتّه مقليّة بفتات الخبز. ودون أن يرمي زوجته بنظرة، أخذ يواصل الأكل، وبالرغم من خُوائه وحزنه، أخذ يحس، وهو يأكل، دَفْقة الحيوية المضطربة الكثيفة في شرايينه. كانت حيوية تبدو - بالقياس إلى يأسه - نوعاً ساخراً من أنواع الثروة التي لاجدوى منها، ولاغَنَاء فيها، وأحس شعوراً بالوحشة والضياع. ثم رفع عينيه أخيراً، وقدم لها الزجاجة، دون كلمة: كانت ماتزال تمسك بقطعتها من الخبز واللحم - لم تكن قد أكلت الاّ نصفها- وهزّت رأسها بالرفض.

- ألا تأكلين؟

- لست جوعانة.

أنهى لورنزو أكله، ثم جمع قشر البيض وغيره من البقايا، ولفّها في قطعة من الورق، ورماها إلى أقصى ما يستطيع. وكان يقوم بهذه الأعمال الصغيرة كلها بنوعٍ من العناد والتصميم المتعمدّ كما لو كان لاينسق بقايا النزهة فحسب، بل ينسّق محتويات ذهنه المضطرب نفسه.

أما زوجته، وقد أنهت شطيرتها الآن، فقد أخذت تمسّ وجهها بالبودرة، بالاستعانة بمرآة صغيرة، ثم قالت:

- والآن، هل نذهب؟

- أين؟

- البيت.

- لكن الوقت مازال مبكراً.

فقالت في غير عطف:

- هأنت قد رأيت البحر، وتغديت، أنت لاتريد أن تنام هنا، هه؟

كان لورنزو يرقبها، وهولايدرى أهو يشعر بالثورة والموجدة؛ أم يشعر بالذلة والمهانة أمام عدائها العنيد.

ثم قال في صوت خفيض:

- أسمعي. يجب أن أكلمك.

- تكلمني؟ أماكفاك كلاما؟

فانزلق على العشب، بجهد، وجلس بجوارها

- أحب أن أعرف ماذا يحنقك مني؟

- لست حانقة. لكني لا أرى لماذ نستمر معاً. هذا كل شيء.

- أنتِ إذن لم تعودي تحبينّني؟

- لم أكن أحبك في أي وقتٍ من الأوقات، والآن خاصّة، أكثر من أي وقتٍ مضى.

فأصرّ لورنزو قائلا:

- في وقت من الأوقات، عندما كنت أعطيك هدية، أو مبلغاً من المال، كنت ترمين بذراعيك حول عنقي، وتحضنينني، وتقبلينني، وتقولين لي إنك تحبينني،

فوافقته، وقد نالها ضيق واضح من تذكرته لها بجشعها الصبياني:

- بالطبع كانت تعجبني الهدايا. لكني لم أكن أحبك.

- كان ذلك كله تظاهراً إذن؟

- لأ، ليس بالضبط.

وتيقن لورنزو من صدقها. فالامتنان، عند النساء اللاتي من طرازها، عند قبول الهدايا، يكاد يشبه الحب شبهاً وثيقاً. بل لعلّ ذلك كان النوع الوحيد الذي بوسعها أن تشعر به من الحبّ.

- ولكن.. أنا - ونظر إلي الأرض - أنا، منذ أن بدأت الأحـوال تسـوء، وأنا أشـعـر نحـوك، لأول مـرة في حـياتي.. لست أدرى كـيف أشرح لك..

فهتفت في سخرية:

- إذن فلا تحاول أن تشرح شيئاً في عرضك.

- يعني لا أستطيع أن أعرف ماذا عندك ضدى؟

- ضدكَ؟

وقد بدأت تثور وتهتاج.

- إنني لا أريد أن أكون زوجة شخص خارجٍ من السجن.

- لم أمكث في السجن إلا أياماً قلائل، ولأسباب سياسية على أى حال.

- أنت تقول ذلك ولكن غيرك يقول شيئاً آخر.. وأنك ربما سجنت ثانية، في أى وقت.

لاحظ لورنزو نغمة من الشك في صوتها، كما لو كانت تردد شيئاً سمعته من آخرين، ولم تفكر فيه بنفسها.

- أنت تتحدثين عن موضوعات لاتعرفين عنها شيئا. أراهن أنك في كل السنوات التي عشناها معاً لم تكوني تعرفين من أنا، ولا ماذا أفعل.

- لا تكن سخيفاً.

- طيب، قولى لى

- كنت...

وترددتْ.

- كنت شخصاً ذا مركز، وخلاص.

– هذا لا يكفى، ماذا كان مركزى؟

فقالت باحتقار:

– كيف لى أن أعرف؟ المهم أن الجميع كانوا يتحدثون عنك كما لو كنت شخصاً ذا سلطة. لكنك كنت دائماً تتغير. اليوم شيء وغداً شيء آخر. كان لدىّ أشياء أخرى أنا أفكر فيها، غير شغلك.

فقال لورنزو بلطف:

– نعم، كان لديك رودلفو، وماريو، وچيانّي، لتفكرى فيهم.

فتظاهرت بأنها لم تسمع أسماء عشاقها – كلهم من قبيلها، صغار السن، حمقى، طائشين، وواصل لورنزو كلامه:

– على الأقل، هل تعرفين ماذا حدث بعد أن فقدت وظيفتى، أم لا تعرفين؟

رآها ترفع كتفيها فى نفاد صبر:

– هأنت تتكلم كمالو كنت أنا بلهاء، إننى أذكى بكثير مما تظن

– لاشك. لاشك . لكن قولى لى، ماذا حدث؟

– جاءت الحرب، وانتهت الفاشيّة. هذا ما حدث. يرضيك هذا؟

– عظيم. ولماذا تظنين أننى خسرت وظيفتى؟

فقالت فى غير يقين:

– إن.. الحكومة الآن أصبحت في أيدى أعداء الفاشية.

– ومَنْ هم أعداء الفاشيّة؟

وعندئذ رفعت عينيها إلى السماء، وزمّت شفتيها، ولم تقل شيئاً.

استولى على لورنزو نوع من الغضب الثائر. مثل هذا الجهل أسوأ من أى حكم يدينه. هذا الجهل يجعل أخطاءه، ولا داعى لذكر ميزاته القليلة، تهوى كلها فى الفراغ، فى العدم، لم تبق من حياته إلا

آثار أقدامه التى خلّفها منذ برهة قليلة على رمال الشاطىء.

– والفاشيّة، ماذا كانت؟

نفس الصمت مرة أخرى. فقبض عليها لورنزو فجأة، من ذراعها، وهزّها:

– أجيبى، أيتها الشيطانة، لماذا لاتجيبين؟

فقالت فى وجوم عابس:

– دعنى. لا أجيب لأننى أعرف أنك تريد أن تشوش علىّ الأمور، وتجعلنى أغير رأيى. لا أريد أن أبقى معك، هذا كل شىء.

لم يعد لورنزو يصغى إليها، كان مس ذراعيها قد أوقظ فيه الشهوة مرةً أخرى. ونظر إلى «الچوب» محبوكاً على فخذيها، وهى جالسة، كما لو كانت نعومة لحمها، ودفئه، وثقله، قد شاعت فى النسيج.

وأحس ذهنه ينصهر، لمرآهْ، ونَفَسه يتتابع. لكنه قال ببطء:

– أنت لاتدركين أنك تتركيننى فى نفس الوقت الذى كانت فيه امرأة أخرى لتَبْقى بجانبى، بالذات، وذلك لأسباب ليست واضحةً فى ذهنك، حتى. من أجل نزوة، ربما، أو ثرثرة وصلتك من هنا أو هناك.

– كل ما أعرفه أن الكثير من سيدات المجتمع لم يعدن يدعوننى إلى بيوتهن، أو حتى يُحيينّنى فى الطريق.

لقد قلت لأمى فعلاً أننى أريد أن أرجع لها. لا أريد أن أبقى معك، هذا كل شىء ونهضت واقفة.

نظر إليها لورنزو. كانت تقف منتصبة، مزدرية، وساقاها فى موقف لا أناقة فيه، فى داخل ردائها المحبوك، وعلى كعبيها العاليين. وأدرك أنه من السهل أنْ يرميها على الأرض، وينزع عنها ازدراءها.

فساقاها هاتان، تعوقهما وثاقة الرداء وحبكته، كشخصيتها التى تعوقها الحماقة والرعونة. وأحس رغبة عارمةً في أن يخلّ بتوازنها، ودفع جسمه كله دفعة واحدة على ساقيها، فأوقعها على العشب. وسقطت مرة واحدة، وفزعت ثائرة، هاتفة:

- دعنى ماذا جرى لك؟

لم يجبها لورنزو، بل رمى بنفسه فوقها، يسحقها تحت جسمه، وقال: «أنا.. هو أنا..» - وهو يضغط شفتيه على شفتيها، كما لو كان يريد أن يولج كل كلمة، على حدة، في فمها- «لكنك في الحقيقة لستِ بأفضل مني. أنت بنت حمقاء، طائشة، فارغة، فاسدة. بقيتِ معى طالما كان ذلك يوافقك، أما الآن، ولم يعد ذلك يوافقك، فسوف تبقين معى على الرغم منك.»

ورأى نظرة الفزع في عينيها، ثم قالت، وهي تكاد تتضرع إليه الآن: دعني. دعني.

فقال لورنزو، من بين أسنانه: لن أدعك.

فقد كان يعرف من خبرته فى الماضى أن امرأته، بالرغم من ثورتها وحنقها، تستسلم للعنف فى النهاية. ويبدو، دائماً، فى لحظةٍ ما، أنها تستسلم لنوعٍ من الهمود، ومن المشاركة فى إثم القوة التى تُخضعها، ثم تستسلم بعد ذلك، وتغدو سلبيّة، عاشقة، كما لو كان ما أبدته من رفضٍ قبل ذلك ليس إلا دلالاً وعنادا. ذلك مظهر آخر من مظاهر طيشها وحمقها. عجزها عن أن تواصل، وأن تحقّق، أى شعور من مشاعرها، سواءً كان صداقة أم عداوة، حتى النهاية. وعندما بدأ نضالهما الآن، هى تنافح عن نفسها، وهو يحاول أن يظهر على دفاعها، رأى لورنزو فجأة، فى عينيها الصغيرتين

البريئتين، تلك النظرة السلبية القابلة، المتراخية، نظرة الخضوع للغواية، تلك النظرة التي طالما عرفها في الماضي، وأحس في نفس الوقت بمقاومتها تخور. ثم قالت في صوت خفيض: كفى. ربما رآنا أحد. – وكانت تلك – من الآن – دعوة له أن يستمر.

لكنه أحس فجأة بالاشمئزاز من نصره. لن يتغير شيء في النهاية، حتي إن استسلمت. سوف ينهض عنها، بلا حب، عن ذلك الجسم الذي استمتع به. أما هي، مزدرية ومهوّشة الهندام، فسوف تجذب رداءها المكرمش المجعّد إلى أسفل. ثم يبدأ نزاعهما ثانية، من أول كلمه تلفظها، مضافاً إليه شعور آخر من المقت والاشمئزاز من هذه المزاوجة الآلية التي لامعنى لها. ولم يكن ذلك ماقصد إليه عندما أتى بها في رحلة هذا اليوم.

فتركها، بحركة فجائية عنيفة ، وابتعد عنها على العشب. ونهضت جالسة، وفي عينيها نظرة ...، كأنما أصابها أذى، وقالت في موجدة:

– أنت تعرف أن العنف لن يصل بك إلى شيء.

واحس لورنزو كما لوكان يريد أن ينفجر ضاحكاً، وأن يجيب على العكس، العنف هو الشيء الوحيد الذي يؤدى بها إلى نتيجةٍ ما. لكنه في الوقت، لم يملك إلا أن يقرّ في دخيلته بصدق ما قالت. لم يكن العنف ليصل به الى شيءٍ مما كان ينشده حقا.

على أنه بالرغم من ذلك قال بقسوة:

– ذلك لايغيّر الحقيقة، فلو استمررتُ قليلاً لفتحت رجليك.

فقالت في اشمئزاز صادق:

– كم أنت مبتذل.

ونهضت على قدميها، وتسلقت الحافة بين الشجيرات بتعثر، ثم

أخذت طريقها. في عزم، نحو الأرض الخواء.

وبقي لورونزو قليلاً على الأرض ، عيناه مثبتتان بالعشب. وعندما أدار إجابات زوجته في ذهنه، أحس أنه لا يعرف، هو نفسه، ماذا كان يفعل خلال تلك السنوات كلها، وماذا كان يمثّل. وقال في نفسه: إنها محقة. كان ذلك كله حلماً خاويا، وهذيانا. وقد استيقظت الآن. وأخذ يرجع البصر إلى الماضي. فأدرك أنّه لايتذكر شيئاً على الأطلاق إلا بشاشته الدائمة، بشاشته نحو مرؤوسيه، ورؤسائه، وأصدقائه، وأعدائه، نحو الغرباء عنه، ونحو زوجته. وأدرك أن بشاشته لابد قد أتت أثراً سيئاً في النهاية، إذ أنه الآن بعد ان تكلم كثيراً، وابتسم كثيراً، يحس بعجزه عن أن يتكلم أو يبتسم، كما لو كان لسانه قد جفّ، وتوجعه أركان فمه. في مثل هذه الحال، حتى زوجته، ببلاهتها، تجد الأمور أمامها سهلة متيسرة.

وقفز إذ سمع نبضة السيارة البعيدة، وتوقف لحظة يصيخ السمع.

ثم وثب إلى قدميه، وقد اعتراه الشك، وأخذ يجرى عبر أشجار الصنوبر، يقفز فوق الشجيرات، والأرض الوعرة، نحو قطعة الأرض الخلاء. وعندما بلغها، ينهج، وجدها خاوية. وكان الهواء معلقاً بالتراب الذى أثارته السيارة وقد هربت بها زوجته.

ولاحت له تلك نهايةً ملائمة للنهار، ولم يشعر حتى بالضيق. ربما استطاع أن يعود في سيارةٍ حربيّة راجعة. وعلى أسوأ الفروض سيمشى نحو ميلين إلى الطريق الرئيسي، ومن هناك يستطيع العودة بسهولة، فالسيارات التى تمر بالطريق كثيرة.

ولكنه إذ أخذ يسير في الممر خلال غابة الصنوبر شعر بنداء

البحر، وتاق لأن يعود مرة أخرى إلى الحركة التى لاتنتهى، قبل أن يرجع للمدينة. ثم أحس برغبة أن يفعل شيئاً لم يكن ليجسر أبداً على أن يفعله أمام زوجته، أن يخلع حذاءه، ويرفع بنطلونه، ويمشى على حافة البحر، فى المياه الضحلة بين مدّ الأمواج وجَزْرها.

وأحس كذلك أنه يريد أن يمشى على حافة البحر ليبرهن لنفسه أنه لم يكن ليهمه هرب زوجته. لكنه كان يعرف أن ذلك غير صحيح، وعندما جلس على الرمال ليخلع حذاءه لاحظ أن يديه ترتجفان.

خلع حذاءه وجوربه، وطوى بنطلونه إلى أعلى حتى ما تحت الركبتين، وشق طريقه بين الأسلاك الشائكة إلى البحر وأخذ يسير فى المياه الآتية المتراجعة بين المد والجزر، وحذاؤه فى يده، رأسه محنى، وعيناه مخفوضتان.

كان يبدو كما لو كان يفكر، لكنه لم يكن يفكر فعلا فى شيء وشاقه أن يرى الموج يمر على قدميه، ويرتفع على ساقيه، وتتكون عنه دوّامة من الماء حول كاحليه، ثم ينسرب ناكصاً، كما لو كان خائفاً، يحمل معه الرمال من تحت قدميه، فتدغدغه الرمال كما لو كانت شيئاً حيا. وشاقه أيضاً أن يحتفظ بعينيه مثبتتين إلى أسفل، فلا يرى إلا المياه عن يمين، وعن شمال، مضطربة داكنة، مدوّمة، تتناثر عليها حلقات بيضٌ من الزَبَد، وكان البحر بالقرب من من الشاطىء مليئاً بالحلفا البحرية السوداء، ترمى بها الموجة إلى الرمل ثم تحملها راجعة مع الماء المنحسر. وكانت توجد بالماء عصيان رقيقة كالأبنوس، وقشور من الصدف بيضاوية صقيلة، وشظايا دقيقة من الخشُب، وآلاف من الأشياء الصغيرة السوداء تهيجها حركة الماء الداكن المحمل بالرمل، دون توقفّ. وكانت أصداف أبو جلمبو الصغير الميت

شفافةً رائعة، وأعشاب البحر خضراء، وجذور صفراء، كلها تترك فى هذا الهشيم المتفحم بقعاً من الألوان. وعندما كان الموج ينحسر كان العشب الأسود يتعلق، فى نهم، بقدميه، فيكوّن زخرفة مُنَمْنمة سوداء على بياضهما اللامع. وكان يطفو بين الحين والحين حطام أكبر من ذلك كله شيئاً ما، بين موجة وأخرى، فى صخب الماء المرغّى الزجاجىّ الأرضية. ورأى شيئاً ليس ببعيد، غير واضح المعالم، فخيل له إنّه حيوان ما. لكن عندما اقترب منه، متغلباً على ضغط الماء، رأى أنه كعب حذاءٍ خشبى مما يرتديه النسوة الكسيحات، لعلاج العظام. وقد انتشرت على مقدمته أصداف صغيرة من «الجمشت» البحرى الشاحب، فكوّنت عنده خصلاً كثيفة، أما الكعب فقد كان مازال مغطى بقماشٍ أحمر. وعندما كان ينظر إلى هذه البقايا مرت به موجة عالية لازبد فيها، بللته بسرعة حتى وسطه. فرمى الحذاء، وتقهقهر راجعاً بالقرب من الشاطىء.

لم يدر كم من الوقت مرّ به وهو يسير على الشاطىء، على الرمال الناعمة الهاربة من تحت قدميه، فى المياه المدوّمة. ولكنه أحس نوعاً من الدوار، من طول تحديقه فى الأمواج التى تتكسر بلا توقف على ساقيه وتمر به نحو الشاطىء الذى لم يكن يراه. ورفع رأسه إلى البحر فخيل له، لحظة، أنه يرى البحر مرتفعاً منتصباً، كحائطٍ متسايل . ولم تكن السماء، على الأفق، إلا هبوةً من البخار، حيث كان طير بحرىّ يكشط جلدة الماء فى طيرانه الخطر البعيد فأيقظ فى ذهنه إحساسه بعنف الريح الثمِل المخمور. وسقط تقريباً، وهو مدوّخ، تحت وطء موجة ثقيلة. وخيل له فجأة أن صراخ الأمواج قد احتدّ، واحتدم، كما لو كان يخامرها أملٍ فى سقوطه وانهياره.

استدار نحو الشاطىء وهو يوشك أن يكون خائفاً، ليخرج من الماء، ويجلس لحظة على الرمل الجاف. كان قد سار شقة طويلة، وترك الأرض الخلاء، والأنقاض، بعيداً إلى الخلف منه.

وكانت الرمال، هنا، ترتفع في تلالِ دُشَمٍ صغيرة للدفاع، وكانت الأسلاك الشائكة تتقاطع فوقها، على جذوع من الخشب تبدو كما لو كانت أناساً تتشابك بالأيدي، وتمد أذرعها، تسدّ عليه الطريق. واسترعى انتباهه مرتفع قريب تغطيه أعشاب البحر اللامعة الكثيفة، وقد حفرت الأمواج الرمال من تحته. فقفز حتى وصل إلى العشب، ولمس الأرض بيده، ووثب إلى المرتفع.

كان تيار العشب البحري والرمل الذي وثب حوله، وصعد عاليا في الهواء، في أصداءٍ مروّعة، قد أعمى عينيه لحظة عن السماء عندما سقط في دوّامة الانفجار. وخيل له أنه يسقط باستمرار، إلى الأبد، في ضجة دائمة من شلاّل لايتوقف. ولكن سرعان ما تلاه الصمت والجمود . رقد على ظهره في الماء، تأتيه أصوات البحر، وأصداء حركة حلوة وبعيدة بشكل فذ، تحت سماءٍ أصبح الآن يراها مرة أخرى. كانت المياه تجذبه إلى تحت، من شعره، فتخفض رأسه وترفع قدميه. تَحرّك جسده مع موجةٍ تمرّ عليه، ورأى بقعة حمراء كبيرة تمضي مسرعة نحو الشاطىء تعلوها حلقات من الزبد وبقايا حطام أسود. ثم جاءت موجة أخرى وجذبته إلى تحت، فأغمض عينيه.

«شهر العسل المرّ»

ألبرتو مورافيا

كانا قد اختارا أناكابرى ليقضيا فيها شهر العسل، لأن جياكومو كان قد أمضى فيها فترةً من الوقت منذ بضعة شهور، وكان يصبو إلى العودة لها، مع عروسه. كانت زيارته السابقة قد جاءت فى الربيع وكان يذكر الهواء الرائق الحارّ، والأزهار نابضة حيّة تزوم بطنين آلاف الحشرات فى وهج الشمس الذهبى. ولكن كل شىء يبدو مغايرا هذه المرة، بمجرد وصولهما. فقد كانت أيام أغسطس الحارة الرطبة تُطبق عليهما، وكانت الرطوبة الناضحة بالبخار تغيّم السماء. وفى أعالى قمم أنا كابرى نفسها لم يكن يبدو ثمة أثر للهواء الرائق الحارّ، أو الأزهار، أو البحر الضارب إلى اللون البنفسجى، وهى الأشياء التى كان جياكومو قد صاغ فيها قلائد الثناء. وكانت الممرات التى تدور خلال الغيطان مغطاة بطبقة من التراب الأصفر وقد تراكم خلال الشهور التى لم تنزل فيها قطرة من المطر. حتى السحالى المنزلقة، كانت تخلف خلفها آثار مرورها فى التراب. وأخذت الأوراق، قبل الخريف بزمن طويل، تحمرّ وتدكن وكانت ثمة أشجار بأكملها قد ذوت وصوّحت من قلة الماء. ذرات التراب تملأ الهواء الساكن الذى لا حركة فيه، وتجعل عرانين الأنف ترتعش وقد أخذت روائح المروج والبحر تحل محلها رائحة الروث الجاف والأحجار المصطلية التى شاطت فى الشمس، أما المياه التى كانت قد اكتسبت لونها فى الربيع، فيما يبدو، من شطوط البنفسج تحت سطحها مباشرة، فقد كانت الآن كتلة رمداء تعكس الضوء الكئيب الذى يُعشى البصر من ريح السيروكوّ التى تعيث فى السماء.

قالت سيمونا، غداة وصولهما، عندما أخذا يسيران على طول الممر الذى يُفضى إلى المنار:

– لا أرى هنا أى جمال على الإطلاق. ولست أحب هذا المكان، بالمرّة.

لم يجبها چياكومو، كان يتبعها على بعد خطوات قليلة. كانت تتكلم بنفس هذه اللهجة الشاكية غير الراضية منذ خرجا من دار البلدية، في روما، حيث انعقد زواجهما. وكان الشك يراوده في أن مزاجها الذى طال الأمد بكدره، ممتزجاً بنفور جسمىّ واضح، لم يكن، ذلك كله، مرتبطا بالمكان قدر ارتباطه بشخصه هو. كانت تشكو من أنّاكابرى لأنها لم تكن تدرك أنها لم تكن راضية، أساساً، بزوجها. كان زواجهما مبنياً على الحب، بلاشك، لكنه كان حباً مؤسساً على إرادة الحب لا على الإحساس الأصيل الصادق به. وقد كان لإحساسه البدائى بالكرب مايبرره، عندما أزلج الخاتم حول إصبعها، فرأى ومضةً من الأسف والحرج في وجهها، ذلك أنها توسلت له أن يدعها وشأنها، فلم تعطه نفسها في ليلتهما الأولى بعد الزواج، في أنّاكابرى، متعللة بالتعب ودوار البحر. وفي يومهما الثانى من الزواج كانت ما تزال بكراً، شأنها قبل الزواج.

كانت تغذّ السير، في كلال، وعلى أحد كتفيها حقيبة مشدودة، بين شجيرات الحواجز المتربة، ينظر إليها چياكومو بشىءٍ كأنه حدّة مركّزة، آسفة، كأنما يأمل أن يملكها، بنظرة واحدةٍ نافذة، كما كان يفعل كثيراً مع غيرها من النساء. ولكنه أدرك على الفور أن نظرته كان يعوزها النفاذ، كانت عيناه تسقطان عليها، وتقومان بتحليلها، في محبة وعطف، ليس فيهما شىء من قوة الهوى الآسر. ولم تكن سيمونا فارعة الطول، وكان لها ساقان طويلتان، بشكلٍ غلامىّ، وفخذان رقيقتان ناحلتان وترتفعان حتى تصلان إلى حزّ يشبه

الانخساف، عند كل من جانبيهما، فيتضح خطّ نهايتهما بجلاء من الشورت الذي ترتديه، حيث تتصلان بجسمها. وكان بياض ساقيها بياضاً طاهراً نقياً لامعاً وبارداً، ولها خصر ضيّق مهصور، وردفان صغيران، ولم يكن فيها من خصائص الأنوثة، عندما تستدير لتكلّمه، إلا امتلاء نهديها المنحدرين، يبدو أنهما كثقلين خارجيين لايوائمان هيكلها الرقيق. كما أن شعرها الأشقر الكثيف، بالرغم من قَصّته القصيرة، يتدلى ثقيلاً على مؤخر عنقها. استدارت دفعة واحدة، كما لو كانت قد أحست بأن عينيه ترقبانها وسألته:

– لماذا تجعلني أمشي أمامك؟

رأى جياكومو ذلك التعبير البرىء الصبياني في عينيها الكبيرتين الزرقاوين، وأنفها الصغير المحفوف، وشفتها العليا، الصبيانية أيضاً، والمدفوعة إلى الخلف على فمها. وطاف بذهنه أن وجهها أيضاً غريب عليه، لم يمسّه الحب.

قال في تسليم:

– سأمشي في الأوّل، إذا شئت.

ومرّ بجانبها، ومس صدرها متعمداً بمرفقه، ليختبر مدى رغبته. ثم واصلا السير، هو أولاً، وهي تتبعه. وكان الطريق يدور حول قمة «مونت سالارو» ويمتد تحت جدران من الأحجار التي علاها الطحلب، متراكبةً فوق بعضها بعضاً دون ملاطٍ يمسكها، وأغصان الكروم مشدودة فوقها. وعلى الجانب الآخر من الطريق انحدار عميق وعر، تنزل عليه كروم العنب وبساتين الزيتون الممتدة الخاوية، حتى تصل إلى البحر المغطى بالضباب. وليس في هذا الامتداد المنحدر كله إلا شجرة صنوبر واحدة، في منتصف سفح الجبل، تطفو أعاليها

الخضراء في الهواء وتبتعث في ذهنه ذكرى الصفاء الريفي للمشهد الذي رآه في أيامه المثلي. وكانت سيمونا تمشي بطيئة غاية البطء، وتتخلف قليلاً عنه كل خطوة، حتى كفّت نهائياً عن المسير، وتوقفت، وسألته:

– مازالت أمامنا شقّه بعيدة؟

فقال جياكومو بخفة:

– لم نكد نبدأ بعد. أمامنا على الأقل ساعة.

فقالت في ضيق:

– لا أستطيع أن أحتمل،

نظرت إليه كما لو كانت تأمل أن يقترح عليها الرجوع، فعاد إليها، ووضع ذراعه حول خصرها:

– أنتِ لاتحتملين الجهد. أم لا تحتملينني أنا؟

فردت عليه بانفعال غير منتظر:

– ماذا تعني، يا أبله؟ لا أحتمل مواصله المشي، بالطبع .

– أعطِني قبلة.

فأعطته نقرة خفيفة سريعة بفمها على خدّه.

وتمتمت:

– الجو حار. ليتنا كنّا في البيت.

فأجابها چياكومو:

– يجب أن نصل إلى المنار. مامعنى الرجوع الآن؟ سوف نستحم بمجرد وصولنا، ذلك مكان مدهش. والمنار ملون كله بخطوط بيضاء وحمراء.. ألاّ تريدين أن تريه؟

– نعم.. ولكني أتمنى أن أطير إليه، بدلاً من أن أمشي.

فاقترح عليها:

– فلنتكلم إذن.. فلن تُلقى بالاً إلى المسافة أثناء الكلام.

فاعترضت عليه، بصوت يوشك أن يكون باكيا:

– ولكن ليس عندى ما أقول..

وتردد چياكومو لحظة، قبل أن يجيب:

– أنتِ تحفظين شعِراً كثيراً. قولى قصيدة، وسوف أصغى إليك، وقبل أن تنتهى نكون قد وصلنا.

كان بوسعه أن يرى أنه كان موفقاً، فقد كانت لها ذاكرة فذة حقاً للشعر. وسألته فى غرورٍ صبيانى:

– ماذا أقول؟

– أغنية من دانتى.

– أيها؟

فقال عشوائياً.

– الأغنية الثالثة من «الجحيم».

سارت سيمونا وقد ارتاحت قليلاً، إلى الأمام عنه، وأخذت تلقى:

من أجلى يذهب المرء إلى مدينة الشكوى.

من أجلى يذهب المرء إلى آلام الأبد.

من أجلى يذهب المرء فيضيع بين الضائعين.

كانت تلقى الشعر إلقاءً آليّا، لا تعبير فيه، كما لو كانت تلميذة، وهى تتنفس بمشقة، من الجهد المضاعف المطلوب منها. وكانت تقف عند نهاية كل بيت، وهى تمشى بعناء إلى الأمام، دون أن تلقى أى اهتمام إلى المعنى أو السياق، كتلميذة عندها من العزم الصادق والنيّة الطيّبة، أكثر مما عندها من الذكاء. وكانت تستدير نحوه، بين

الفينة والفينة، فى ضراعة، ترمقه بنظرةٍ خاطفة، نعم، كتلميذةٍ بالضبط، والكاب الأزرق الأبيض على شعرها الأشقر.

بعد أن قطعا شيئاً من الطريق بلغا حائطاً مبنيّا حول ڤيلا. وكان الحائط مغطى بالعلّيق، تعلو عليه أغصان السنديان الأثيثة الورق.

قالت سيمونا:

وكنت أسقط كمن يريد أن يُغفِى..

وهى تنهى الأغنية الثالثة، ثم استدارت إليه وسألته:

- من يملك هذه الڤيلا؟

- كانت ملِك إكسيل مونت، لكنه مات الآن.

- من كانَ هذا الرجل؟

- كان رجلاً حاذقاً فطنا فى الواقع.

وأراد أن يسلّيها، فواصل حديثه:

- كان طبيباً مشهوراً فى الأوساط الراقية، وفى روما، عند بداية هذا القرن، إذا كنت تحبين أن تعرفى عنه أكثر من ذلك، فهناك حكاية قيل لى إنها صادقة كل الصدق. تحبيّن أن تسمعيها؟

- نعم، احك لى.

- جاءت مرةً سيدة من سيدات المجتمع، جميلة وطائشة، تشكو من كل صنوف الأوجاع الوهمية. فأصغى لها مونت فى صبر، ثم فحصها. وعندما وجد أنّ لاشيء بها، قال لها: إن عندى علاجاً أكيداً، ولكن يجب أن تفعلى بالضبط ما آمرك به.. أذهبى إلى هذه النافذة المفتوحة، انظرى منها، واسندى مرفقيك على القاعدة.. فأطاعته، وتبعها مونت، ثم ركلها ركلة هائلة فى مؤخرتها. وصحبها إلى الباب وقال: ثلاث مرات كل أسبوع، وستشفين تماما بعد شهور قلائل.

لم تضحك سيمونا، وبعد لحظة قالت بمرارة، وهى تنظر إلى الحائط:

– هذا هو علاجى أيضاً.

فبُهت جياكومو من لهجتها النائحة، وسألها وقد اقترب منها:

– لماذا تقولين ذلك؟ ماذا يدور بذهنك؟

– هذا صحيح.. إننى مجنونه شيئاً ما، ويجب أن تعاملنى بالضبط بهذا الشكل.

– عمّ تتكلمين أنتِ؟

فقالت بصراحة فجائية مدهشة:

– عما حدث بالليلة الماضية.

– لكنك كنت تَعِبة، عندك دوار، بالليلة الماضية.

– أبداً، لم يكن ذلك السبب أنا لايصيبنى دوار البحر أبداً، ولم أكن تعبة أيضاً... كنت خائفة، هذا كل مافى الأمر.

– خائفة منى؟

– لا، خائفة من الفكرة كلها.

واصلا السير فى صمت. واستدار الحائط منحنياً مقوساً بحذاء الممر، مائلاً ميلاً خفيفاً عليه، كما لو لم يكن يستطيع أن يسند شجرة السنديان الضخمة خلفه، ثم انتهى الحائط، وامتدت أمامهما هضبة معشوشبة ينحدر تحتها سفح الجبل فجأة، حتى امتدادات ريو القحلة الموحشة الذاهبة فى البحر. وكانت الهضبة مغطاة بنبات السيراس، تضرب أزهاره الهرميّة إلى الأحمر المترب، كما لو كانت ربداء. واقتطف جياكومو بعضاً منها، وأعطاها لزوجته وهو يقول:

– انظرى، ما أجملها...

فرفعتها إلى أنفها، كبنت حييّة في طريقها إلى هيكل الكنيسة تنشق عبق زنبقة، ولعلها أحست بما يبدو عليها من مظهر عذريّ، فالتصقت به، فيما يشبه العناق، وهمست في أذنه:

– لاتصدّق ماقلت الآن... لم أكن خائفة... بل عليّ أن أعتاد الفكرة... الليلة.

فردد:– الليلة؟

وتمتمت في ألم:– كم أنت عزيز إليّ – ثم أكملت بعبارة تقليدية يبدو أنها حفظتها لترددها بهذه المناسبة – الليلة سأكون لك.

وكانت قد قالت كلماتها الأخيرة في تعجّل، كما لو كانت خائفة من تقليدية هذه الكلمات، لا من جوهرها، وطبعت على خده قبلة سريعة. وكانت تلك أول مرة تخبره فيها إنّه عزيز إليها. أو ما يقارب ذلك، فأغراه ذلك بأن يأخذها بين ذراعيه، لكنها قالت بصوت مرتفع:

– أُنظرْ! ماهذا هناك؟ تحت ، عند البحر؟

وهي تفلت من ذراعيه في نفس الوقت.

فنظر جياكومو في الاتجاه الذي أشارت إليه، ورأى شراعاً وحيداً يبرز من الضباب المعلق فوق الماء. وقال كمن ضاق صدره:

– مركب.

واستأنفت المشي، أكثر سرعة، كما لو كانت تخشى أن يعاود ما حاوله من عناقها. وعندما رآها تفلت منه، عاوده شعوره بالعجْز، لأنه لن يستطيع أن يملك حبيبته على الفور.

وتمتم من بين أسنانه المطبقة، إذ كان يلحق بها:

– لن تفعلي ذلك الليلة.

فأجابته، وهي تخفض رأسها، دون أن تنظر حولها:

– سيختلف الأمر الليلة.

كان الجوّ حاراً فعلاً، ليس في ذلك شك، وخيل لچياكومو أن الهواء الثقيل الذى يحيط بهما يحتوى على نفس العقبة، نفس الاستحالة التى تتخبط بها علاقته بزوجته، استحالة سقوط المطر ليصفى الهواء، استحالة الحب. وأحس بما يشبه الجزع، عندما رآها مرة أخرى، أحس أن إرادته للحب ليست إلا إرادة عقلية محضة، لاتتعلق بحواسّه. كان قوامها واضحاً بدقة أمام عينيه، ولكنْ تعوزه تلك الهالة التى تغلّف الشخص الحبيب فى العادة. فقال باندفاع.

– ربما لم يكن ينبغى أن تتزوجى بى.

وبدا أن سيمونا تقبل هذه القضية أساساً للمناقشة، كما لو كان هذا الخاطر راود ذهنها، دون أن يجرؤ على الخروج منه. فسألته:

– لماذا؟

وأراد چياكومو أن يجيب: لأننا لانحب أحدنا الآخر حقاً. ولكنه عبّر عن هذا الخاطر بطريقة مغايرة تماماً. كانت سيمونا شيوعية، وتشغل وظيفة فى مركز قيادة الحزب. ولم يكن چياكومو شيوعيا بالمرّة. وكان يزعم أنه لا يعلق أهميةً ما على آراء زوجته السياسيّة، لكن تلك الآراء كانت تندفع خارجة دائماً، بوصفها أسساً كافية للنزاع بينهما، فى أوقاتٍ أبعد ماتكون استثارةً لها. واندهش نفسه وهو يقول.

– لأن هناك فارقاً كبيراً فى الآراء بيننا.

– تقصد أى نوع من الآراء؟

– الآراء السياسيّة.

وأدرك عندئذ لم دفعه ابتعادها عنه، ونفورها منه، أن يُدخِل السياسة فى الموقف. كان ذلك على أمل أن يثير عندها رد فعل عنيف حول نقطة

يعرف مدى حساسيتها فيها. وأجابت، فعلاً، على الفور:

– ليس الأمر كذلك. فالحقيقة أن لي آراءً معينة، وليست لك آراء بالمرّة.

كانت، بمجرد أن تثور مسألة السياسة، تتخذ لنفسها أسلوباً تعليمياً تلقينياً مكتفيًا بذاته، على العكس تماماً من أسلوبها الصبيانيّ المألوف. وقد كان ذلك يوشك دائماً أن يثيره. وكان يُسائل نفسه، بصدق تام، ما إذا كان حنقه ينبع عن شعورٍ معادٍ للشيوعية، في داخله، لكنه أراح باله بسرعةٍ في هذا الصدد. فلم يكن ليهتم بالسياسة أدنى اهتمام. وكل ما كان يكربه أن زوجته تهتمّ بها. فقال في جفاف:

– طيب، سواءً كانت المسألة مسألة سياسية أو غيرها، فهناك شيء ما بيننا.

– فما هو إذن؟

– لا أعرف، لكني أحس بوجوده.

فقالت بعد لحظة، بنفس اللهجة المثيرة:

– أما أنا فأعرف تماما. إنها فعلاً مسألة آراء، ولكني آمل أن ترى الأمور يوماً ما كما أراها.

– أبداً.

– لماذا أبداً؟

– كم مرة قلت لكِ... أولاً: إنني لا أريد أن أتدخل في السياسة بأي شكل. ثانياً: لإنني فرديّ معتز بفرديّتي.

فلم تجب سيمونا. ولكن صمتها، في مثل هذه الحالات، أكثر جفاءً من أيّ خلافٍ صريح. وغلبته موجة من الغضب المفاجيء، فلحق بها، وأمسك بذراعها، وصاح:

– كل ذلك سيؤدي إلى نتائج خطيرة يوماً، مثلاً، إذا جاءت حكومة

شيوعية، وقلتُ شيئاً ضدها، فسوف تبلغين عني.

ردت عليه:

– ولماذا تقول شيئاً ضدها؟ لقد قلت الآن إنك لاتريد أن تتدخل فى السياسة بأى شكل.

– ممكن أن يحدث أى شىء.

– ثم أن الشيوعيين ليسوا فى الحكم.. لماذا تهتم بموقفٍ لا يوجد أصلاً؟

إذن فهذه حقيقة، مادامت لم تنكرها، وسوف تبلغ عنه في مثل هذه الحالة. فقبض على ذراعها بأعنف مما كان يفعل، وهو يودّ تقريباً لو أنه آذاها.

وقال:

– الحقيقة أنك لاتحبيننى.

فقالت فى وضوح:

– لم أكن لأتزوجك إلاّ عن حب.

ونظرت إليه صراحة فى عينيه، وشفتها السفلى ترتجف. وملأه صوتها بالحنوّ والرقة، فجذبها إليه، وقبّلها. وكانت للقبلة أثرها الجلىّ عليها: فتصلبت عرانين أنفها، وكانت تتنفس بمشقة، وذراعاها تتدليان إلى جانبيها، ولكنها ضغطت جسمها إلى جسمه . وقال:

– يا جاسوستى.. وهو يبتعد عنها، ويربت على وجهها:

– يا جاسوستى الصغيرة.

فسألته وقد أحست على الفور كما لو كان يهينها:

– لماذا تسمّينى جاسوسة؟

– كنت أمزح.

واصلا السير، وكان يتبعها، وهو يتساءل عما إذا كان قد عنى بكلمة هذه المزاح حقاً فى نهاية الأمر؟ ثم غضبه؟ أكان ذلك مزحةً أيضاً؟ لم يكن يعرف كيف استسلم لهذا الغضب الذى لاسبب له، وكيف طوّعت له نفسه أن يوجه لها مثل هذه التهم التى لا سبب لها، ومع ذلك فقد كان يدرك، فى خُفوت، أن لاتهاماته ما يبررها من سلوك سيمونا. وقد وصلا فى أثناء ذلك إلى الجانب الآخر من الجبل، ونظرا، عند أعلى نقطة فى الممر، إلى مُنْفَسح هائل من الهواء تحتهما، كبئر لا قاع لها. وبعد خمس دقائق كان بوسعهما أن يريا مشهداً كاملاً لجانب بأجمعه من جانبى الجزيرة، هو منحدر طويل مخضوضر، مغطى بكروم العنب وشجيرات التين الشوكى المتناثرة، يبرز منه، فى القاع، امتداد داخل فى البحر، يقوم عليه المنار. وكان مدى المشهد فسيحاً هائلاً، وكان المنار المخطط بأشرطة بيضاء وحمراء فاتحة معلقاً بين السماء والبحر، يبدو بعيداً غاية البعد، لا أكبر من راحة اليد. وصفقت سيمونا يديها فى بهجة وسرور، وهتفت.

– ما أروع ذلك حقا!

– قلت كم أنه بديع، فلم تصدقينى.

فقالت وهى تربت خده:

– سامحنى، أنت دائماً محق، وكم أنا حمقاء.

فقال جياكومو، قبل أن يبلغ إلى كبح نفسه:

– أيذهب ذلك فى السياسة أيضا؟

– لاليس، فى السياسية. لكن دعنا من حديث السياسة الآن.

وضاق بنفسه لأنه عاد مرةً أخرى إلى المجادلة لكنه أحس أيضاً، بذلك الشعور القديم، شعور النبذ والغيرة الذى يغلبه على أمره، كلما أشارت، إلى آرائها السياسية تلك الإشارة العقيديّة التى توشك أن تكون

دينيّة. فقال بألطف ما يُوسعه:

– لماذا لا نتكلم عن السياسة؟ لعلنا نُحسِن فهم أحدنا الآخر لو أننا تكلمنا عن السياسة.

لم تجب سيمونا. وسار چياكومو خلفها، وقد طفح به كيل مزاجه المحنق الكدر. هو يحس الآن بثقل اليوم وحرارته، أما سيمونا، وقد انتشت بمشهد البحر البديع، فهتفت:

– فلنجر بقيّة الطريق. فلا أستطيع أن أصبر على الوصول إلى الماء.

وأخذت تجرى نازلة على الطريق، وحقيبتها تقفز على كتفها، وتنبعث عنها صرخات مرح ثاقبة حادة. ولاحظ چياكومو أنها ترمي بساقيها إلى كلٍ من الجانبين، كفَرَسٍ غير مدربة. وفجأة، طفت في ذهنه فكرة أن «الليلة ستكون لي» فأفرخت روعه، ماذا يمكن أن يكون من أهمية للانضواء تحت حزب سياسيّ ما، بالمقارنة إلى الحب – هذا العمل الذى لا عمر له ولا تاريخ له، هذا العمل الإنساني – وكم هو إنساني.. وقد ملك الرجال النساء طويلاً قبل أن توجد الأحزاب السياسية والديانات . وقد كان واثقاً أنه في اللحظة التي يملك فيها سيمونا سوف يطرد عنها كل ولاء، إلاّ ولاء حبها له. فشدّت هذه الفكرة من أيْده، وجرى خلفها ، صائحاً بدوره.

– انتظريني، سيمونا!

وقفت تنتظره، مضرّجة، مرتعشة، لامعة العينين، وإذْ لحق بها قال وهو ينهج:

– بدأت الآن فقط أحس نفسي سعيداً جداً. إنني أعرف أننا سنحبّ أحدنا الآخر.

فقالت وهي تنظر إليه بعينيها الزرقاوين البريئتين:

– أنا أعرف ذلك أيضاً.

وضع چياكومو ذراعه حول خصرها، رأمسك بيدها في يده وقسرها على أن ترميها فوق كتفه. وسارا بهذا الشكل، ولكن عينيْ سيمونا ظلتا مثبتتين بالماء تحتهما. أما چياكومو، من ناحيتة، فلم يقو على أن ينتزع خواطره من ذلك الجسد الذى يضمه هذا الضمّ الوثيق. كانت سيمونا ترتدى أحدى جرسيات الصبيان القصيرة، به رقعة من أمام. وكان رأسها صبيانياً أيضاً فى شكله، وشعرها القصير المضطرب يسقط على خدّيها. لكن خصرها الرقيق يأوى فى حَنْية ذراعه بنعومة امرأة، تبدو بشيراً بالإستسلام الكامل الموعود فى الليلة القادمة. وفجأه همس فى أذنها:

– سوف تكونين دائماً صديقتى الصغيرة، وزميلتى.

ولابد أن ذهنها كان منصرفاً إلى المنار، فلم تنفذ إليها إلا كلمة «زميلتى» وحدها، خارجة عن السياق ، من غير المضمومن العاطفى الذى يُكسبها ما قصد إليه چياكومو من معني. لأنها أجابت بابتسامة:

– لايمكن أن نكون زملاء.. على الأقل حتى ترى الأشياء كما أراها، لكنى سأكون زوجتك.

فقال چياكومو فى نفسه إنها ما تزال فى الحزب، بغيرةٍ له عذره فيها. فلم يكن لكلمة «زميل» معنى حانٍ رقيق فى ذهنها، ولكن لها دلالة سياسية فقط. استمر الحزب عندها يشغل المحلّ الأول من ولائها.

قال مثبطاً:

– لم أكن أقصد إلى هذا المعنى.

فقالت، وهى تسرع إلى تصحيح نفسها:

– أسفة. هذا مانسمّى به بعضنا بعضاً فى الحزب

– لم أكن أعنى إلا أن تكونى رفيقتى مدى الحياة.

فقالت:

- هذا صحيح.

وهي تخفض رأسها في ارتباك محرج، كما لو لم تكن لتقبل الكلمة حقاً إلاّ بمعناها السياسيّ.

أنزلا ذراعيهما، وسارا ينزلان بقية الطريق دون حلقة تربط بينهما. وبدا المنار يقترب منهما، فيكشف عن شكله الذى يشبه الأبراج. وكانت المياه فيما وراءه تلتمع بصقالٍ معدني منعكس عن أشعة الشمس الساقطة عليها مباشرة. أما الجبل فكان يعلو خلفهما، يرتفع منه جدار من الصخر الأحمر فوق المنحدر الذى يقطعانة الآن. وبدا لهما على قمته بيت صيفي يدور به سياج من قضبان الحديد ويوسعهما أن يريا كائنين إنسانييّن دقيقين يستمتعان بالمشهد.

قال لها چياكومو:

- هذه النقطة العالية هى لاميليارا. ومنذ بضع سنوات رمت فتاة من أنا كابرى، بنفسها إلى الجبل. ولكنها لفّت ضفائرها أولاً على رأسها وعينيها، حتى لاترى ماذا تفعل.

فرمت سيمونا بنظرة من فوق كتفها إلى أعلى الجبل، وقالت :

- الانتحار خطأ فى خطأ.

وشعر چياكومو بالغيرة تلذعه ثانية . فسألها:

- لماذا؟ هل يمنعه الحزب؟

- دَعْكَ من الحزب.

ومدّت بصرها إلى البحر، كما لو كانت تنشق النسيم الذى يهبّ إليهما:

- الانتحار خطأ لأن الحياة جميلة، وبهجةٌ أن يكون المرء حيا.

ولم يكن چياكومو لينزع أن يدخل فى جدلٍ سياسيّ من جديد، أراد أن

يظهر بتلك السكينة والحياد اللذين كان يعتقد تماماً أنهما من صفاته.
ولكن ضيقه، مرة أخرى، تغلبّ عليه، فقال:

– ولكن تـ ... (كان ذلك اسم أحد أصدقائها الشيوعيين) قد انتحر، أليس كذلك؟

فقالت بإيجاز:

– كان مخطئاً.

– ولماذا؟ لأبدّ أنه فعل ذلك لسبب من الأسباب. ماذا تعرفين أنتِ عن ذلك؟

فقالت بعناد:

– إنني أعرف، مع ذلك. كان مخطئاً. إن واجبنا أن نعيش.

– واجبنا؟

– نعم، واجبنا.

– من قال ذلك؟

– لا أحد. إن الأمر هكذا.

– وأستطيع أن أقول كذلك إن واجبنا أن نقضي على حياتنا، إذا أحسسنا أنها لم تعد تساوي الحياة.. لم يقل هذا أحد – هكذا، إن الأمر هكذا.

فقالت، دون هوادة:

– ليس هذا صحيحاً. لقد وُجدنا لكي نعيش، لا لنموت.. ولا يمكن لأحد أن يفكر أنّ الحياة لاتستحق العيش إلا إذا كان مريضاً أو في حالة عقلية مَرَضيّة شاذة.

– وتظنين أنتِ أن تـ... كان مريضاً، أو في حالة عقلية مرضيّة، أليس كذلك؟

– في اللحظة التي قتل فيها نفسه، نعم، أعتقد ذلك

فأغراه ذلك بأن يسألها ما إذا كان ذلك «خطأ» الحزب ، فقد بدا له ذلك جلياً من نبرة صوتها العنيدة التي يضيق بها كل الضيق. لكنه بلغ أن يكبح نفسه هذه المرة. وكانا قد وصلا الآن إلى قاع المنحدر، وأخذا يعبران مساحة مسطحة جافة تغطيها نباتات الشبرم والتين الشوكيّ. ثم استحالت التربة إلى أرض صخرية، ووجدا نفسيهما قبالة المنار، عند نهاية الطريق، كما لو كانا عند نهاية كل سكنٍ إنسانيّ وبداية عالمٍ جديد موحش، من الطباشير والحجر الذي لا لون له. قام المنار عالياً فوقهما، إذ كانا ينزلان بين الكتل الصخريّة في اتجاه البحر. وعند منحنى الممر أتيا فجأة أمام حوض من الماء المخضرّ، تحيط به صخور سوداء مرتفعة، تآكلت من ملح البحر. وجَرَتْ سيمونا نازلةً إلى الأرضية المغطاة بطبقة من الأسمنت ، وهي تهتف:

– مدهش! بالضبط ماكنت أمل أن أجده هنا! نستطيع الآن أن نستحم، وليس هناك غيرنا، نحن وحدنا تماما.

وما كادت تنتهي من نطق هذه الكلمات حتى جاءهما صوت رجل من بين الصخور:

– سيمونا! يالها من مفاجأة لطيفة.واستدارا، وعندما ظهر وجه رجل، بعد الصوت، هتفت سيمونا:

– ليڤيو! هاللو! أنت هنا أيضاً؟ ماذا تفعل؟

كان الشاب الذي خرج من بين الصخور قصير القامة، قوياً شديد الأسْر، عريض الكتفين. وكان رأسه على نقيض جسمه الرياضيّ، فقد كان أصلع لايحيط بالعنق فيه إلا حاشية من الشعر، ولوجهه المسطح مظهر الباحثين العقليين ، وجه ابن عُرس، فيما دار بذهن جياكومو، وقد كرهه

على الفور، ليس ذكياً بالضبط، ولكنه فطن حادّ غادر. كانت له به معرفة سطحيّة، وكان يعرف أنه يشتغل مع سيمونا، في المكتب.

خرج ليڤيو تماماً من بين الصخور، وهو يشد لباس البحر الضيق الباهت إلى أعلى. وقال، على سبيل الإجابة:

– أفعل هنا ما تفعلان، فيما أظن.

فقالت سيمونا شيئاً أرضى چياكومو رضاءً كبيراً:

– لا أظن.. ليس هذا محتملاً تماماً.. هل تعرف زوجي؟

فقال ليڤيو، على رسله، في يُسرٍ من أمره، وهو يقفز نازلاً إلى حجر مربع ضخم، ويصافح چياكومو بقوة جعلته يغمض عينيه من الألم:

– نعم. التقينا في روما واستدار ليڤيو إلى سيمونا، مكملاً:

– سمعت شيئاً مؤداه إنك تنوين الزواج. ولكن كان ينبغي أن تخبري الزملاء. فهم يريدون أن يشاركوا في أفراحك وقال ذلك كله في صوت لا لون له، كصوت رجلٍ يقوم بعمله، وإن كان مع ذلك ليس، بالضرورة، خاوياً من التعاطف. ولاحظ چياكومو أن سيمونا تبتسم، ويبدو أنها تنتظر من ليڤيو أن يواصل كلامه، بينما وقف ليڤيو كتمثال من البرونز على قاعدة من الحجر، ولباس البحر مشدود بإحكام على عانتَيه الضخمتين، وكل عضلات جسمه بارزة مفتولة، يكلّمهما من علٍ. وأحس چياكومو أنه خارج عن حديثهما، وانسحب بعيداً، وهو يصيخ السمع طوال الوقت. وأخذا يتحدثان بضع دقائق، دون أن يتحركا، يسألان أحدهما الآخر عن هذا أو ذاك من أعضاء الحزب، وأين يقضون أجازاتهم.

لكن حديثهما لم يدهش چياكومو بقدر ما دهش للهجة هذا الحديث، ماتلك النغمة بالضبط؟ ولمَ كانت توجعه وتثيره؟ فانتهى إلى أن فيها نبرة تتضمن تواطؤاً، إشارةً أو إلماحاً إلى رابطةٍ خفيّة تختلف عن رابطة

الصداقة أو الأسرة. وتساءل لحظة، ما إذا كان ذلك بالضبط هو ما نجده بين الزملاء الموظفين في بنك مثلاً أو مصلحة حكومية؟ ولكنه أدرك بعد تفكير قليل أنها تختلف تماماً.. كانت نغمة صوت.. وأخذ يبحث بعض الوقت في ذهنه ، يتلمس التعريف الدقيق.. نعم، كانت نغمة صوت راهبين أو راهبتين يلتقيان. فلِمَ كانت توجعه وتثيره؟ ليس لأنه كان يعارض آراء سيمونا وليڤيو السياسيّة، فقد كان يسلم، طواعية، أثناء نقاش عقليٍ ما، أن لهذه الآراء بعض الأسس السليمة. لا، لم يكن في شعوره ذاك بالعداوة شيء عقليّ ، كان غامضاً، معمّى عليه هو نفسه، فقد كان ذلك يبدو في بعض الأحيان هو نفس شعوره بالغيرة، كما لو كان يخشى أن تفلت سيمونا منه، عن طريق اتصالاتها الحزبيّة. وقد كانت هذه الخواطر تجرى في ذهنه، ووجهه يدكن ويزداد قتامةً وتبرماً، فلما لحقت به سيمونا بعد لحظة، وعلى وجهها ابتسامة عريضة، هتفت في دهشة:

– ماذا جرى؟ ما الخبر؟ لماذا أنت غير سعيد؟

– لاشيء، من حرارة الجو فقط.

– فلننزل إلى الماء. ولكنّ.. أولاً أين يمكن أن أخلع ملابسي؟

– ما عليك إلا أن تتبعيني.. من هنا..

كان على خبرةٍ بالمكان، فأخذ يفضي بسيمونا خلال ممرّ ضيق بين الصخور. ونزلا، من خلف هذه الصخور إلى صخورٍ أوطأ منها، ثم دارا حول كتلةٍ هائلة من الصخر تحجب شاطئاً صغيرا غاية الصغر، من الرمل الأسود الناعم المسحوق تحت سفح حوائط صخرية لامعة سوداء تحيط ببركة صغيرة من الماء الضحل تملؤها أعشاب البحر السوداء. وكان جوّ الشاطىء يشبه جو غرفة مغلقة، سقفها السماء. ولها أرضيّة مائية، وحوائطها من الصخر. وقال چياكومو وهو ينظر حواليه: لاتوجد مقارنة

بين هذا وأى كابينة.

فقالت سيمونا، وهى تصعّد النَفَس بارتياح: أخيراً، يُمكن أن أخلع عني ملابسي.

وضعت حقيبتها على الرمل، وانحنت لتخرج المايوه، بينما نزع جياكومو عنه قميصه وبنطلونه في لحظة واحدة: مستنداً إلى الصخر. وضحكت ضحكة عصبية عندما رأته عارياً تماماً. وقالت:

– هنا مكان صالح للاستحمام دون مايوه. أليس كذلك؟

فأجاب وهو يفكر في ليڤيو:

– لسوء الحظ، لايستطيع الواحد أن يكون وحده أبداً.

ومشى، ومازال عارياً، بقدميه الحافيتين على الرمل البارد، نحوها. لكنها لم تره وهو يأتى، إذ كانت تخلع الچيرس من فوق رأسها. ودار بذهنه أن عريها يجعلها تبدو أكثر عذرية وبكارة من أى وقت آخر. وقد كان لثدييها المدوّرين النازلين حلمتان كبيرتان ورديّتا اللون، ولهما مظهر من الطهارة والنقاوة، كما لو لم يكونا قد مُنحا أبداً لتمسّهما ملاطفات رجل. بل كانت عذريتها من القوة حتى تراجع جياكومو عن أن يضمها إليه، كما كان في نيته، بل وقف قريباً منها، وهى ترفع رأسها من الچيرس. وهزّت شعرها المضطرب إلى الخلف عن رأسها، وقالت بدهشة:

– ماذا تفعل؟ لما لا تلبس المايوه؟

فقال جياكومو:

– أحب أن آخذك إليّ، الآن، وهنا.

– على الصخور؟ أنت مجنون؟

– لا، لست مجنونا.

كانا متواجهين الآن، هو عارٍ تماماً، وهي عارية حتى الوسط، فعقدت

ذراعيها على نهديها. كما لو كانت تحميهما وتقيهما، وقالت في ضراعة:

– دعنا ننتظر، حتى الليلة.. ولنستحم الآن.. أرجوك.

– الليلة، سوف تؤجليننى أيضاً.

– لا، سيختلف الأمر الليلة.

فسار چياكومو مبتعداً في صمت، وأخذ يلبس المايوه، بينما سارعت سيمونا بارتداء المايوه البكينيني وقد ارتاحت وخف عنها العبء، بشكل واضح، وهتفت في مرح:

– سوف أعوم. إذا كنت تحبنى حقاً فاتبعنى!

فاقترح چياكومو:

– هيا ننزل هنا.

توقفت سيمونا، ومدت قدمها البيضاء في العشب البحرى المخضرّ الداكن الذى يخنق المياه السوداء:

– هذه البركة موحلة وضحلة جداً.. وليست أكثر من بركةٍ صغيرة. فلنرجع إلى حيث أتينا الآن.

– ولكن.. لن نكون وحدنا هناك.

– أوه.. سيتاح لنا أن نكون وحدنا كثيراً، بعد ذلك.

عادا إلى الحوض، حيث كان ليڤيو يأخذ حمام شمس على الأرضيّة المصنوعة من الأسمنت، راقداً بلا حَراك كما لو كان ميتاً. وزاد ذلك، بشكل ما، من كراهية چياكومو له. نعم. لقد كان ليڤيو من ذلك الصنف من الناس الذين يذهبون فيكتسبون، متعمدين، تلك السمرة من الشمس، ثم يبُاهى بذلك، يرتدى لباس بحر ضيق يقصد به إبراز رجولته، أيضاً. سمعهما ليڤيو، فوثب واقفاً على قدميه، وقال:

– هيابنا، سيمونا فلنقفز، ونتسابق حتى الصخرة.

فقالت في بهجة، وقد نسيت زوجها:

– بشرط أن أسبقك بطولٍ واحد على الأقل.

– سأعطيك ثلاثة أطوال إذا شئت.

لم يملك چياكومو إلا أن يردد لنفسه: ها هي مرة أخرى، تلك اللهجة الحميمة، المتآمرة، المتقاربة، على طريقة الحزب، تلك النغمة التي لم تكلمه بها أبداً، رغم زواجهما، بل لعلها لن تكلمه بها أبداً. وجلس على صخرة مسطحة ، فوق الأرضيّه، وأخذ يرقب زوجته تقفز، في غير رشاقة، إلى البحر، ثم تسبح كظلٍّ داكن تحت الماء المخضرّ، حتى برزت منه، ورأسها الأشقر يقطُر بالماء.

هتف ليڤيو:

– قفزتِ على البطن أنتِ.

ثم قفز برشاقة صحيحة مضبوطة ليلحق بها. وعام تحت الماء أيضاً، مسافة أكبر مما أطاقتة سيمونا، فخرج أبعد عنها. وتساءل چياكومو ما إذا كانت هذه الطريقة، «طريقة الحزب» تلك، نتاجاً من نتاجات خياله، وما إذا لم يكن بينهما، في الماضي، ثمّ علاقة شخصية حميمة أوثق. وأدرك أن هذا الفرض الثاني، بالإجمال، أقل استثارة لضيقه وحنقه من الفرض الأول. ثم قال لنفسه لو أنه ذكر مثل هذا الشكّ لسيمونا، لثارت، ووصمته بأنه «بورجوازي» هذا إذا لم يكن «منحرف العقلية» و«غير سليم» ثم طرد عنه الفكرة، بعد لحظة، كانا زميلين، كما قالت، لا أكثر . وحيّره أنه كان يعترض على زمالتهما تلك أكثر مما كان ليعترض على أنهما عاشقان، لماذا؟ قال لنفسه، بمجهودٍ متخاذل خائر من العزيمة الواهنة، وحسن النية، إن غيرته تلك سخيفة، وإن عليه أن ينزعها عن ذهنه. كان يرقبهما، طول الوقت، يتسابقان في المياه الخضراء الباهرة ، في اتجاه الصخرة المستديرة التي تقوم عند نهاية الخليج الصغير. وبلغها ليڤيو أولاً، ثم رفع

نفسه على نتوءٍ بارز منها، وهتف، فى ناحية سيمونا:

– كسبت . كيف أنت الآن؟

فردت عليه سيمونا.

– وأنت، كيف أنت؟

هذا إذن نوع النكات، واللمزات التى يتبادلانها، هى وليڤيو: أما هو، فإن لم تتبادل معه مثل هذه النكات ، فى شهر العسل، فمتى يتبادلانها؟ ونهض فى حسم، وجرى بضع خطوات على الأرضيّة، ثم قفز إلى البحرَ ليلاحقهما. ونزل إلى الماء مسطحاً على بطنه، فأثاره الألم. وبعد أن سبح، تحت السطح، يضرب الماء عدة ضربات، طلع منه وأخذ يسبح نحو الصخرة التى كان يجلس عليها ليڤيو وسيمونا، كانا قريبين إلى أحدهما الآخر، يتكلمان دون توقف، تتدلى أرجلهما من الصخرة. ولم يُرقْ له منظرهما، بل نزع عنه، فى الواقع، كل ما كان ينبغى له أن يحسّ من بهجة، فى الوثوب، مترباً وساخناً، إلى الماء البارد المنعش. وأخذ يسبح بغضب، ووصل إلى الصخرة منقطع النفَس ، وقال وقد تعلق بحافة بارزة منها.

– هل تعرفين، أن المياه باردة، باردة جداً.

فقالت سيمونا، وهى تكف لحظة عن حديثها، لترمقه بنظرة:

– خيل لى أنها دافئة.

وأضاف ليڤيو.

– لقد جئت هنا فى أبريل. أيامها كانت المياه باردة . أؤكد لك.

وسألته سيمونا، فى فضول يكاد، فيما يبدو لچياكومو، يشف عن الغَزَل:

– وكنت وحدك؟

فأجابها ليڤيو:

– لا، كنت مع نيللا.

كان چياكومو يحاول أن يتسلق الصخرة، ولكن المكان الوحيد الذى كان بوسعه أن يتشبث به هو بالضبط حيث كانا يجلسان، وكان يبدو أنهما لايلقيان بالاً لمحاولته، وتشبثه . فآثر ألاّ يسألهما أن يتحركا ليفسحا له مكانا . ثم أمسك، في النهاية، بحافّة بارزة من الصخر، ناتئة السنان وحادة، وأحس بألم فى راحة يده، من إحدى هذه السنان الحادة القاطعة، كما لو كانت قد نفذت عميقةً في لحم يده. وما أن تمكن من أن يجلس، حتى قفز الآخران إلى الماء، وهم يتصايحان:

- فلنتسابق في العودة!

وأغرقاه بالرَّشاش . فنظر إليها فى ضيق عارم، وهما يتسابقان نحو الشاطىء. ولم يقفز إلى الماء إلا بعد أن استعاد سيطرته على نفسه. كانت سيمونا وليڤيو، يجلسان في حمى صخرة عالية، وكانت سيمونا تفتح علبة للغداء أخرجتها من حقيبتها .

وقالت لچياكومو، وهو يقترب منهما:

- فلنأكل شيئاً الآن. ولكن يجب أن يشاركنا ليڤيو. يقول أنه كان ينوى العودة إلى الجبل، ولكن - فى هذه الحرارة - غير معقول..

فجلس چياكومو دون كلمة على الصخور بجانبها . وتبيّن أن محتويات العلبة ضئيلة: بضع شطائر لحمة، وبيضتان مسلوقتان، وزجاجة من النبيذ.

قال چياكومو بخشونة: على ليڤيو أن يكتفى بالقليل جدا .

فرد ليڤيو بمرح: لايهمك . فأنا شخص قليل المطالب جداً.

وكانت سيمونا تبدو سعيدة للغاية، وهى جالسة القرفصاء ، تقسم الغداء. فأعطت كلاً منهما سندويتشا ، وقضمت قطعة من شطيرة،

وسألت ليڤيو أين حصلت على هذه السمرة؟

فأجاب: على التيبر.

فسألته، بين قضمةٍ وأخرى: جماعتك كلها تحب النهر جداً فيما يبدو، أليس كذلك يا ليڤيو!

– كلها، إلا ريچينا . فهى تحتقر النهر. تقول إنه غير ارستقراطى بما يكفيها.

كانا يتكلمان عن أشياء سطحية تافهة، ولكنّ بينهما علاقة حميمة أوثق مما بين الزوج وامرأته.

وقالت سيمونا: مهما حاولت ريچينا أن تفعل فلن تستطيع أن تبعد عنها ظروف نشأتها.

فسأل چياكومو: من هى ريچينا؟

وأجابه ليڤيو: واحدة من جماعتنا.. بنت مالكٍ غنى من أصحاب الأراضى.. بنت عظيمة جداً فى الواقع. ولكن مسح علامتها التجارية ليس أمراً سهلاً.

– وفى هذه الحالة، ماذا تعنى بالعلامة التجارية؟

– العلامة التجارية البورچوازية.

فقال چياكومو باندفاع: لو إنكم وصلتم إلى الحكم، أنتم، لكان عليكم أن تمسحوا هذه العلامة عن ملايين الناس.

فقال ليڤيو، فى ثقة تامة: بالضبط ما سنفعل. هذه شُغلتنا أليس كذلك يا سيمونا؟

كانت سيمونا فمها ملآن، لكنها اخفضت رأسها بالموافقة. وواصل ليڤيو كلامه: ستكون البورچوازية الإيطالية مشكلة صعبة، لكننا سنحلها، ولو اضطررنا إلى قتل شق كبير منها، أثناء ذلك.

– هذا احتمال يجب أن نتعرض له، في شُغلتنا.

ولاحظ چياكوموأن سيمونا لم يكن يبدو عليها أنها تساير ليڤيو في عنفه وصرامته فقد عبست عند ملاحظته الأخيرة ، ولم تنطق بكلمة تأييد. ولابد أن ليڤيو أحس بذلك، فقد غيّر الموضوع فجأة:

– سيمونا، تعرفي، كان ينبغي فعلاً أن تخبرينا بزواجك، هناك أشياء لايصحّ إخفاءها.

وكان في إجابة سيمونا نغمة حنوّ نحو چياكومو:

– قررنا هكذا فجأة، بين يومٍ وليلة. لم يكن حاضراً غير الشهود القانونيين. حتى آباءنا وأقاربنا لم يكونوا هناك.

– هل تقصدين إنكم لم تكونوا ترغبون في حضورهم؟

– لم نكن نرغب في حضورهم، ولعلهم، على أى حال، لم يكونوا ليأتوا... لم يوافق والده ووالدته على زواجي من چياكومو.

– لأنك إلى اليسار أكثر مما ينبغي، أليس كذلك؟

فتدخل چياكومو: لا، فأهلي لايتدخلون في السياسة إطلاقا. لكن أمي كانت تضع عينيها على بنتٍ أخرى..

فقال ليڤيو، بعد أن قضم قضمةً أخرى: ربما كانوا لايتدخلون في السياسية، كما تقول، ولكن هناك دائماً دلالات سياسية. كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ السياسة تدخل في كل شيء هذه الأيام.

فدار بذهن چياكومو أن هذا صحيح بالفعل. حتى في شهر العسل، وفي العناق الأول بين عروسين. ثم قدم البيضة المسلوقة لزميليه، وقد ضاق بهذا الاتجاه في خواطره، وقال:

– أنتما خذا هذه البيضة. لست جوعان.

فقال ليڤيو، ووجهه ينّم عن الدهشة:

– يا شيخ؟ صحيح؟

وسألته سيمونا: لماذا؟

– السيروكوّ والحرارة، أظن.

ونظر ليڤيو إلى السماء المغيّمة، وقال:

– ستهب عاصفة قبل دخول الليل، أستطيع أن أعدكما بهذا.

كان حديث ليڤيو يتألف من العبارات المحفوظة، والأكليشيهات. ولكن يبدو أن هذه العبارات تروق سيمونا. فقد كانت تنقل لها أكثر مما تنقله محاولات للتعبير عن عواطف يصعب، إن لم يستحل، أن يضعها في كلمات. وقالت سيمونا، بعد أن انتهت من غدائها:

– ننام الآن، نأخذ حمام شمس.

فسألها ليڤيو: أتكونين وسادتي يا سيمونا؟ – وهو ينزلق نحوها وفي نيته، بوضوح، أن يضع رأسه على حجرها.

وللمرة الأولى أبدت سيمونا نصيباً من الاهتمام بزوجها، فقالت:

– الدنيا حرّ.. ورأسك ثقيلة.

وسارقت چياكومو النظر من ركن عينيها، كما لو كانت تقول: من الآن فصاعداً لن أترك أحداً يفعل ذلك غيرك. فارتفعت روحه المعنوية، وحلّقت عالياً. وأحس مرة أخرى أن هناك بينهما إمكانية للحب. فنهض وقال:

– نتمشى بين الصخور؟

فقالت فوراً: نعم – وهي تتبعه. ثم أضافت تقول إلى ليڤيو: إلى اللقاء.. سنذهب نحن للاكتشاف.

فرمى إليهما ليڤيو: مع السلامة..!

وسارت سيمونا فى المقدمة، في الممر الذى كان زوجها قد عرفها به. واتجهت إلى الشاطيء الأسود على الفور، وجلست عند سفح صخرة، وقالت:

– تمدد، وضع رأسك على رجليّ.. ستأخذ بهذا الشكل راحتك أكثر.

غلبة السرور والنشوة، ورمى ذراعيه حولها وجذبها إليه، وقبّلها، فردت له قبلة، وهي تنفخ من أنفها، كما لو كانت تعاني، تقريباً. وعندما افترقا، رددت:

– تمدد الآن. وسنحاول أن ننام قليلاً، كلينا.

واسندت ظهرها إلى الصخرة، ورقد چياكومو، وقلبه يفيض بالحب، ووضع رأسه على حجرها. وأغمض عينيه. وأخذت سيمونا تربت وجهه فمرت بيدها، في حركةٍ مترددة خجلَى، على خديه، وتحت ذقنه، وصاعدةً إلى رأسه، حيث مرت بأصابعها بين شعره. وفتح چياكومو عينيه لحظة، ولما يكد، ورآها تنظر إليه فى فضولٍ وعكوف صبياني مستغرق. والتقت عيناها بنظرته، فانحنت ووضعت قبلة سريعة على كلٍ من جفنيه، ودعته أن ينام. فأغمض چاكومو عينيه مرة أخرى، وأسلم نفسه لتلك اللمسات الخفيفة من يدها الصغيرة التى لاتتعب، حتى أغفى فى النهاية. ونام فترةً من الزمن لا تحديد لها، واستيقظ وقد أحس بلذعة البرد. كانت سيمونا جالسةً فى نفس الوضع. ورأسه على حجرها وعندما نظر إلى فوق، أدرك سبب إحساسه بالبرد، فقد كانت السماء ملآنة بسحبٍ ثقيلة سوداء، تنذر بالعاصفة.

وسألها: كم من الزمن نمت؟– حوالى ساعة.

– وأنتِ؟

– لم أنم. كنت أنظر إليك.

– الشمس اختفت.

– نعم.

– ستمطرنا السماء لاشك.

فقالت سيمونا، على سبيل الإجابة:

– لقد ذهب ليڤيو.

فسألها چياكومو، دون أن يتحرك:

– ومن هو هذا الليڤيو على حال؟

– زميل من الحزب. صديق.

– لم يعجبني.

فقالت وهي تبتسم:

– أعرف. فأنت لم تحاول إخفاء ذلك. وعندما كان على وشك الذهاب أشار إليك وأنت نائم، وقال : «ماله؟ أهو حانق على؟»

– لست حانقاً عليه.. ولكني لا أحب تصرفاته وسلوكه. أنا في شهر العسل، ولكنه يتصرف كما لو كان هو في شهر العسل معك.

– هو شخص طيب على كل حال.

– كنت تحبينه. أليس كذلك اعترفي!

فانفجرت بضحكة فضيّة بريئة:

– أنت مجنون من غير شك. لم يكن ممكناً حتى أن أحبه. إنه لايجتذبني بالمرة.

– ولكن طريقة كلامكما...

فرددت:

– إنه زميل فى الحزب. وهذه هى طريقة كلامنا جميعاً – ثم صمتت فترة، وقالت بمرارة غير منتظرة: إنه غير ذكى، لذلك لايجتذبنى.

– لايبدو أن غبى بصفةٍ خاصة.

فقالت بغضب:

– لقد قال أشياء كثيرة تنمّ على الحمق. إننا سنقتل الناس مثلاً.. إنه يعرف أن ذلك غير صحيح.. ومع ذلك فقد قاله على سبيل المباهاة. ولكن مثل هذا الكلام المتميع، بلا مسئولية، يضرّ الحزب..

– أنت الآن حانقة عليه.

– لا، لست حانقة عليه، ولكن لا حق فى أن يتكلم بهذا الشكل.

ثم أضافت، وقد تمالكت نفسها:

– هو له قيمة فى الحزب فى الواقع، حتى وإن كان غير خارق الذكاء . فهو مخلص كل الإخلاص. وفى الإمكان أن يطلب منه القيام بأى شىء.

فسأل چياكومو مازحاً، فى جرأة.

– وما قيمتى أنا؟

– لاقيمة لك إطلاقاً، مادمت لست واحداً منّا.

فساءته هذه الإجابة. ونهض ونظر إلى السماء المتهددة.

– يحسُنُ بنا أن نرجع للبيت قبل أن تمطر، مارأيك؟

– نعم، يحسُنُ بنا.

وتردد چياكومو لحظة، ثم وضع ذراعهٍ حول خصرها، وسألها بصوتٍ خفيض هيمّه:

– وعندما نصل .. ستكونين لى.. أخيراً؟

واخفضت رأسها، وهى تحوّل وجهها حتى لا تلتقى بعينيه. ارتدى

چياكومو ملابسه بسرعة، وقد خفّ عنه عبء القلق بعض الشيء. ولبست سيمونا، على بضع خطوات منه، الشورت والچيرس، وأخذت قذف بحقيبتها على كتفها. ولكنه قال، في إحساسٍ رقيقٍ بالحب والوقاية لم يُظهره في طريقهما وهما نازلان:

- سأحمل عنك هذه.

وبدآ السير. فعبرا الأرض المسطحة أولاً، حيث كانت أغصان التين الشوكي المفلطحة الكثيفة تلمع خضراءَ باهتة وتومض تحت السماء المعتمة. وعندما بلغا بداية المنحدر استدارا لينظرا خلفهما. كان المنار المخطط بالأبيض والأحمر يقف أمام سحبٍ سوداء مكومة جليلة المظهر ترتفع من الأفق لتغزو ذلك الجزء الذي مازال شاغراً من السماء. وكانت السحب تتخذ أشكال حيواناتٍ هائلة منطلقة الجماح، بطونها التحتيّة مدّخنه بدخانٍ مقطع منفوث، تتدلى منها على البحر حوافّ مشقّة غير منتظمة. وكان البحر داكناً في بضع بقعٍ منه، ولامعاً من أماكن أخرى كالرصاص الصقول، في الشمس. وكانت هذه الحوافّ المتدليّة هبّات من المطر تبدأ في النزول على سطح الماء، فتمشّطه. وكانت الريح المضطربة المدّومة قد غطت، في هذه الأثناء، شجيرات التين الشوكي بترابٍ أصفر، ثم أبرقت في السماء خطوط متعرجة من البرق تخطف البصر، منحرفةً ذاهبةً في طول السماء وعرضها. وبعد صمتٍ طويل، سمعا الرعد، لاخبطات فيه، بل قرقعة مكتومة متصلة في داخل السحب. ورأى چياكومو زوجته يشحب وجهها، وتنكمش، بحركة غريزية نحوه.

وقالت وهي تنظر إليه:

- البرق يخيفني، حتى الموت.

فرفع چياكومو بصره إلى المساء، نصفها عاصف ونصفها صاف، وقال:

– مازالت العاصفة بعيدة. فوق البحر. فإذا أسرعنا فربما استطعنا أن نبلغ البيت قبل أن نبتلّ.

فقالت وهي تواصل تسلقّ الممر في نشاط:

– فلنسرع إذن.

وكانت السحب، تدفعها فيما يبدو رياح متزايدة العنف، تنبسط على السماء بسرعة مخيفة. وأسرعت سيمونا خطاها حتى كادت تجرى، ولم يملك چياكومو إلا أن يعاكسها:

– خائفة من البرق؟ ماذا يقول الزملاء في ذلك؟ ماركسيّة مثلك لايصحّ أن تخاف من شيء.

فقالت بصوتٍ صبيان، دون أن تستدير:

– ذلك أقوى مني.

وقد كان في الجزء السفليّ من الطريق درجات تبدأ صغيرة ثم تتسع، لتيّسر الصعود عليها، ثم ترتفع الطريق في منحنيات واسعة بين بساتين الزيتون. كانت سيمونا تسبقه بكثير، وفي وسعه أن يراها وهي تهرول أمامه بخمسين أو ستين قدماً. ووقفا في القمة، ليستردّ أنفاسهما، وينظرا حولهما. كانت أنّا كابرى خلفهما الآن، توحي بالأمان، وراء حاجز من الخضرة، تبدو كمدينة عَرَبيّة بسطوحهما، وبرجها الذي يعلوه الناقوس، وكنيسة رمادية القباب. وأشار چياكومو إلى المنار المتقلّص المنكمش على البرزخ تحتّ، وقد انضمت خطوطه أمام العاصفة المتهددة.

وتمتم: تصوّري. لقد كنا تحت هناك!

فقالت سيمونا لا أستطيع الصبر على الوصول إلى البيت – ولعل البرق والرعد فى خاطرها. ثم ألتقت عيناها بعينى چياكومو، فأضافت بشيءٍ من الدلال: وأنتَ؟

فأجاب بصوت منخفض، بانفعال: موافق!

كان التسلق قد انتهى الآن. ولم يكن عليهما إلاّ أن يتبعا الطريق السويّ حتى بيتهما الذى استأجره. وقد كان قريباً، يقع فى هذا الجانب من أنّا كابرى. وسارا تحت جدار متيلا مونت، وعلى طول مرعىً مزروع بأشجار السنديان، وهناك، وراء منحنى الطريق مباشرة، كان جدار بيتهما الأبيض، ببواته الحديدية الصدئة، في ظل شجرة خرّوب تتدلى منها قرون الخروب على طول الجدار. وكانت السحب الآن فوقهما تماماً، العتمة سائدة، كما لو كان المساء قد حلّ. ودفعت سيمونا البوابة ففتحتها فى تعجل، ومضت قدما دون أن تنتظر زوجها. وخطا چياكومو متمهلاً، وهو ينزل الدرجات الرخامية القليلة بين نباتات التين الشوكيّ. وسمع عندئذ قرقعة الرعد مرة أخرى أعلى اصطفاقاً فى هذه المرة، كحمل عربة مقلوبة من الأحجار الضخمة تتدحرج على صخور تلّ. ونادته سيمونا من داخل البيت:

– أقفل الباب بإحكام!

كان البيت على جانب من التل، مدفوعاً به إلى الخلف بين الأشجار. ولم يكن يتألف إلا من حجرات خشنة التأثيث. وأخذ چياكومو طريقه إلى الداخل فى وسط ظلمة تامة تقريباً . لم يكن بالبيت نور كهربائى، بل كان يضاء بمصابيح الجاز من مختلف الأشكال والألوان مصفوفة الآن على مائدة الفَسَحة. فرفع زجاجة أحد المصابيح، وأشعل عود كبريت، ومسّه بالفتيلة، وأعاد الزجاجة

ثانيةً، ثم دخل غرفة الطعام. لم يكن يوجد بها أحد، لكنه سمع سيمونا تتحرك في الغرفة المجاورة. فلم يشأ أن يلحق بها فوراً. وأحسّ بالظمأ، فسكب لنفسه قدحاً من النبيذ الأبيض. ثم رفع المصباح أخيراً واتجه إلى باب غرفة النوم. وكانت غرفة النوم أيضاً مظلمة تقريباً. كانت النافذة المطلّة على الحديقة مفتوحة، وكان بوسعه، فيما بقى من الضوء بين الظلال، أن يتبيّن الشرفة أمامها تحيط بها أشجار الليمون المزروعة في أصص كبيرة. وكانت سيمونا، في روب خفيف واسع، تنسّق السرير الذى كان مازال مهوشاً منذ الصباح. فوضع المصباح على المائدة بجانب السرير، وقال:

- أمازلتِ خائفةً من البرق؟

كانت منحنيةً على السرير، رافعة إحدى ساقيها قليلاً، تسوى الملاءات، فشدّت نفسها، وقالت:

- لا، مادمت بالبيت. أشعر بأمان أكثر.

- وخائفة مني؟

- لم أكن خائفة منك أبداً.

فسار چياكومو حول السرير، وأخذها بين ذراعيه. وتبادلا قبلة، واقفين بجوار رأس السرير. وفكّ چياكومو حمالّة الروب، فانزلق عن كتفيها، وخصرها، إلى الأرض. لكن سيمونا لم تكفّ عن تقبيله، بل أطالت القبلة في الواقع. بشغفٍ مرتبكٍ محرج، تكشف عنه طريقتها المتميزة إذ تنفخ من أنفها. وتركها چياكومو فجأة، في حسم

وقال وهو يخلع ملابسه بسرعة: نامي تسمحي؟

ترددت سيمونا، ثم نامت على السرير. وكانت چياكومو يحس نفسه مدفوعاً بمشاعر حيوانيّة صرفة. كما لو لم لكن في بيت، بل في

كهف معتم، نعم، كما لو كان رجلاً بدائياً تحركهّ شهوته الغريزية وحدها لكنه رقد إلى جوار زوجته، مع ذلك، بقدر من الحنّو والرقة، وكانت تواجه الجدار، لكنها استدارت فجأة، وضمّت نفسها إليه، وآوت إلى حضنه. ورقدا بضع لحظات بهذا الشكل، بلاحراك، ثم أخذ چياكومو يلاطفها، على هوادة، فى لين. وفي نقاوة. كان يريد أن يملكها، بشروطها العذريّة هى، ودون أن يأتى إلى ذلك بشيء من خبرته كرجل. وكان يقصد بملاطفاته الخفيفة الهيّنة؛ وكلماته التى يهمس بها من خلال شعرها فى أذنها، إلى أن يسكّن من روعها، ويهدىء مخاوفها، ويُفضى بها، دون أن تشعر تقريباً، إلى أن تهبه نفسها. لم يكن متعجلاً، وقد خيّل له أن سياسته تلك الجديدة من المُلاينة والصبر قد تكسب له ماعجز عن الحصول عليه فى عجلة الليلة الفائته. وأحس، تدريجاً، أنها لم تكن تستسلم بجسمها فقط لكلماته وملاطفاته، بل بذلك الجزء الداخلى منها الذى كان قد صدّه حتى الآن. ولم تتكلم سيمونا، لكن أنفاسها ثقلت واحتدمت بالتدريج. وفجأة، وعلى الرغم منه تقريباً، أطاع حافزاً طبيعياً فيه، وحاول أن يأخذها. وبدا أن سيمونا تستسلم أولا، تحت ضغط جسمه، لكنها تمردت فجأة، وناضلت لتحرر نفسها. وهمست بمزيج من الغضب والخضوع:

– لا أستطيع ! لا أستطيع!

ورفض چياكومو أن يعير تغيّرها اهتمام، وحاول أن يسودها ويتغلب عليها بالقوة. فدافعت عن نفسها بقدميها وركبتيها ويديها، بينما كان يحاول كل شىء، ليغلبها. وكان جسماهما العاريات، فى صراعهما، غارقين فى عرق لزج. ثم نفذ صبره أخيراً، فوثب من

السير وذهب إلى الحمام وهو يقول:

- سأعود بعد لحظة.

ولبّى إلهاماً أملاه عليه الغضب والثورة، فتلمس طريقة إلى حوض الحمّام، وأخذ شفرة موس كان قد استخدمها لحلاقة ذقنه فى الصباح ودفع به فى بطن إبهامه، وشعر بالشفرة الباردة تقطع الجلد وتنفذ إلى الداخل، لكنه لم يحسّ ألماً. ثم وضع الموس ثانيةً على الرفّ، واعتصر ابهامه فانثال منه الدم غزيرا. وعاد إلى غرفة النوم، ورمى بنفسه على زوجته، وهو يدعك إبهامه الدامى على الملاة بين ساقيها. ثم هتف بغضب:

- ربما كنت غير مدركة ما حدث! ولكنك لم تعودى بكراً الآن.

فسألته وهى ترتعش:

- كيف تعرف؟

- أنظرى !

وأخذ المصباح من المائدة، ورمى بضوئه على السرير: كانت سيمونا مكومة على المخده، تضع ركبتيها تحت ذقنها، وذراعيها حول نهديها. ونظراتّ إلى البقعة التى عليها جياكومو بالضوء، فرأت خطاً طويلاً من الدم الأحمر.

ورمشت عيناها فى تقزز وقالت:

- هل أنت متأكد؟

- دون شك!

لكن عينيها، فى تلك اللحظة تماماً، انتقلت وإلى اليد التى تحمل المصباح. كان الدم ينساب من جرح إبهامه. فصاحت بصوت شالٍ.

- ليس عمى بل دمك أنت!.. أنت جرحت نفسك عامداً.

فأعاد چياكومو المصباح إلى النافذة، وصاح فى غضب:

– وهو الدم الوحيد الذى سأراه الليلة، أو أية ليلةٍ أخرى. أنتِ مازلت بكراً وستظلين بكراً دائماً!

– لماذا تقول ذلك؟ ما الذى يجعلك بهذه القسوة؟

فأجاب:

– هكذا. لن تكونين أبداً لى. إن جزءاً فيك يعادينى. وسيظل يعادينى.

– ماذا تعنى؟

– أنت أقرب إلى هذا الغبىّ ليڤيو منك إلىّ.

وقد خرجت غيرته وظهرت، فى النهاية.

– هذا الجزء الذى يُقربِك من ليڤيو هو الجزء الذى يعادينى.

– ليس هذا صحيحاً.

– نعم، صحيح. وصحيح أيضاً أنه لو جاء حزبك إلى الحكم لبلغّتِ عنى.

– من قال ذلك؟

– أنت قلتِ ذلك بنفسك هذا الصباح، فى طريقنا إلى المنار.

– لم أَقل شيئاً بالمرّة.

وترددت لحظة، ثم قالت:

– لماذا تثير أشياءً كهذه فى مثل هذا الوقت؟

– لأنها تحول دونك وأنْ تحبينى وأنْ تصبحى زوجتى.

فقالت أخيراً:

– لن أبلغّ عنك. سأتركك، هذا كل شىء.

فصاح وقد استشاط غضبا:

– ولكن المفروض أن تبلغيّ عن أعدائكم، ذلك واجبك.

فانفجرت باكية، ومازلت مكوّمة منكمشة عند رأس السرير.

– چياكومو، لماذا تقسو عليّ بهذا الشكل. سأقتل نفسي، هذا ما أفعله ساعتها.

ولم يكن لديه من الشجاعة ما يذكرّها به أنها وَصَمَت الانتحار، في طريقهما إلى المنار، بأنه عمل مَرَضيّ شاذ، لايمكن قبوله بأي حال. فهذا التناقض، في نهاية الأمر، ليرضيه ويتملقّه أكثر من اعتراف صريح بالحبّ. وكانت قد نزلت من السرير، ومازالت تبكي، وذهبت إلى النافذة المفتوحة. وانبطح چياكومو على السرير، يرقبها. وقفت مستقيمة القامة، رأسها محنيّ إلى جانب، وإحدى ذراعيها مرفوعة على إطار النافذة. وفجأة استنارت الغرفة، واستنار كل ما فيها: جسمها الأبيض العريان، والحديقة، وأشجار الليمون في الأصص الكبيرة على الشرفة. ثُم تَلَتْ ذلك قرقعة معدنيّة، ورجفة عنيفة أرعدت النافذة وجدران الغرفة فانطلقت من سيمونا صرخة حافلة. بالذعر. وتركت النافذة، وارتمت، وهي تنشج، بين ذراعي زوجها. فضمها چياكومو على الفور تقريباً، دون أية صعوبة على الإطلاق. وأحس بأن زهرةً خفيّة، تتألف من ورقتين فقط، قد انفتحت، بالرغم من أنها ماتزال مخبوءة غير مرئية، أمام شيء في ليل الجسد المظلم يقوم بدور الشمس. ودار بذهنه فيما بعد أن شيئاً مالم يستقرّ بعد، ولم ينحسم، ولكن كان يكفيه الآن أنْ يعرف أنهّا – إذا اقتضى الأمر – تقتل نفسها من أجله.

المحتويات

١ - على الطرق المتربة	إيجنازيو سيلونى	6
٢ - الياقوتة	كوراّو ألفارو	21
٣ - وجه القَدَر	نيكولا موسكارديللى	31
٤ - اليوم الذى لم يُسترد	چيوفانى پاپينى	41
٥ - الليل	لويچى پيرانديللو	54
٦ - جنون القمر	لويچى پيرانديللو	71
٧ - زفيرينو	أنطونيو بالدينى	84
٨ - الديك	ماسيّمو بونتيميلى	96
٩ - مغامرة فى الليل	أرنالدو فراتيللى	105
١٠ - العودة إلى البحر	ألبرتو موراڤيا	118
١١ - شهر العسل المرّ	ألبرتو موراڤيا	143

إشـارات

المؤلفون :

مؤلفو هذه المجموعة المختارة من القصص الإيطالي الحديث تتراوح أساليبهم ورؤاهم وطُرق صياغة فنّهم، **منهم**

سيلونى الصوفىّ المهموم بالمستضعفين من الناس،

وموسكار ديللى صاحب الحساسية المرهفة،

وبيرانديللو الذى يعرف كيف يبتعث أحزان القلوب وخيبات آمالها،

وبالدينى بدعابته الرقيقة الحانية،

وبونتيميلى فى لقطةٍ سريعة ونفاذة،

وفراتيللى برومانسيته الصاحية الصلبة،

وأخيراً **موراڤيا** اللمّاح العارف بخفايا النفوس والأجساد.

هم كُتاب النصف الأول - تقريباً - من القرن العشرين، انعكست فى أعمالهم هذه المختارة هُمُوم هذا القرن وآماله وإحباطاته، هى أيضاً ميراث الإنسان فى كل مكان وزمان، قدّمتُ لكل كاتب بلمحة موجزة عن حياته وفنّه، أملاً أن تتيح هذه المجموعة للقارىء متعةً، ومعرفةً أعمق بقضايا الإنسان، وأشواقه، وعذاباته، وأفراحه.

إدوار الخراط

المترجم : إدوار الخراط

روائى وشاعر وكاتب قصة قصيرة وناقد أدبى وتشكيلى ومترجم، ولد ١٩٢٦ بالإسكندرية. ليسانس حقوق ١٩٤٦ جامعة الإسكندرية. عمل بمنظمة التضامن الإفريقى الآسيوى منذ ١٩٥٩ ثم فى «اتحاد الكتاب الإفريقيين الآسيويين» حتى ١٩٨٣ شارك فى إصدار وتحرير مجلة «لوتس» للأدب الإفريقي الآسيوى ومجلة «جاليرى ٦٨» الطليعية.

تُرجم : كثير من رواياته إلى عدة لغات، وله أكثر من أربعين كتاباً. من أعماله: حيطان عالية (١٩٥٩)، رامة والتنين (١٩٧٩)، الزمن الآخر (١٩٨٥)، ترابها زعفران (١٩٨٦)، يابنات اسكندرية (١٩٩٠)، مخلوقات الأشواق الطائرة (١٩٩٠)، حجارة بوبيللو (١٩٩٣)، يقين العطش (١٩٩٧). تباريح الوقائع والجنون (١٩٩٨) من دواوينه: لماذا - قصيدة حب (١٩٩٦)، طغيان سطوة الطوايا(١٩٩٦)، ضربتنى أجنحة طائرك (١٩٩٦)، صبحة وحيد القرن (١٩٩٨) من دراساته. الحساسية الجديدة (١٩٩٣)، من الصمت إلى التمرد(١٩٩٤)، الكتابة عبر النوعية (١٩٩٤). أنشودة للكثافة (١٩٩٥) أصوات الحداثة (١٩٩٩) **ومن ترجماته** . الحرب والسلام لتولستوى (١٩٥٨)، الوجه الآخر لأمريكا - هارنجتون (١٩٦٨)، الشوارع العارية لبراتولينى (١٩٦٩)، حوريات البحر (١٩٧٩)،...

الفنان : رؤوف سمعان ميخائيل

فنان تشكيلى شارك فى: صالون الشباب الخامس (تصوير)،

صالون الشباب التاسع (تصوير)،

حصل على العديد من الجوائز فى مراحل التعليم المختلفة.

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٥ ـ يونيو ٩٦)

النظرية الأدبية المعاصرة	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
مدن الآخرين	أشعار ترجمة : أحمد ع. حجازي
صحراء التتار	رواية : دينو بوتزاتي ترجمة : موسى بدوي
الحب	رواية : مارجريت دورا ترجمة : د. فوزية العشماوي
أساطير	تأليف : رولان بارت ترجمة : سيد عبد الخالق
نشيد بحري	شعر : فرناندو بيسوا ترجمة : المهدي أخريف
هبة الطوطم	أساطير الهنود الحمر ترجمة : راوية صادق
أزهار الشر	شعر : شارل بودلير ترجمة : محمد أمين حسونة
مرآة الحبر	نصوص : بورخيس ترجمة : محمد عيد ابراهيم
النظرية الأدبية المعاصرة (ط ٢)	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
الشعر والتجربة	تأليف : أرشيبالد مكليش ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسي
رامبو وزمن القتلة	تأليف : هنري ميللر ترجمة : سعدي يوسف
مداخل الشعر	تأليف : باختين . لوتمان . كوندراتوف ترجمة : أمينة رشيد . سيد البحراوي
باختين : المبدأ الحواري	تأليف : تودوروف ترجمة : فخري صالح

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٦ ـ يونيو ٩٧)

عراف الضوء	شعر للمكفوفين الإسبان ترجمة : إلهـام عيسى
التأويل والتأويل المفرط	تأليف : أمبرتو إكو ترجمة : ناصر الحلوانى
عصر البنيوية	تأليف : إديث كريزويل ترجمة : د. جابر عصفور
الدراسة النفسية للأدب	تأليف : مارتن لينداور ترجمة : د. شاكر عبد الحميد
هبوط الليل	شعر : و. هـ. أودن ترجمة : د. ماهر شفيق فريد
الغرفة الفارغة	شعر : جاك أنصي ترجمة : محمد بنيس
قصيدة النثر	تأليف : سوزان برنار ترجمة : د. زهير مجيد مغامس
ساعى البريد يدق الباب مرتين	رواية : جيمس كين ترجمة : أحمد عمر شاهين
قصر الضحك	شعر : زبيجنيف هربرت ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم
الملاك الصامت	رواية : هاينرش بول ترجمة : طلعت الشايب
مصباح اللذات	الشعر الفارسى المعاصر ترجمة : محمد اللوزى
الأنا الآخر	قصص من أمريكا اللاتينية ترجمة : د. طلعت شاهين
السرير المائدة	شعر: بول إيلوار ترجمة : إدوار الخراط
همس الأمواج	رواية: يوكيو ميشيما ترجمة : مدحت محمد عبد العزيز
الدودة الهائلة	كافكا، الأعمال الكاملة ـ ١ ترجمة : الدسوقى فهمى
النقد الأدبى	مجموعة نقاد فرنسيين ترجمة : د. هدى وصفى

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٧ ـ يونيو ٩٨)

أغاني شيراز (ج ١)	غزليات : حافظ الشيرازي ترجمة : د. إبراهيم الشواربي
حرب مع السمندر	رواية: كارل تشابك ترجمة : حسين العامل
هذا هو الإنسان	تأليف : نيتشه ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد
منظورات	نصوص : جورج حنين ترجمة: بشير السباعي
أغاني شيراز (ج ٢)	غزليات : حافظ الشيرازي ترجمة : د. إبراهيم الشواربي
رسائل إلى ميلينا	رسائل: كافكا ترجمة : الدسوقي فهمي
أكتب إليك من بلد بعيد	نصوص : هنري ميشو ترجمة : سامي مهدي
السقوط على الأرض	أشعار : تيد هيوز ترجمة : سهيل نجم
بيانات السوريالية والأواني المستطرقة	نصوص : أندريه بروتون ترجمة : صلاح برمدا
موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي	تأليف : روجيه جارودي ترجمة : نورا أمين
تاريخ المسألة المصرية	تأليف : تيودور رتشتين ترجمة : عبد الحميد العبادي ومحمد بدران
الديمقراطية	تأليف : دليل بيرنز ترجمة : محمد بدران
امرأة في الثلاثين	تأليف : مجموعة كتاب قصة ترجمة : علاء الديب

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٨ ـ يونيو ٩٩)

كتاب الطباع	تأليف : ثيوفراسط ترجمة : عبد الغفار مكاوى
شدو البلبل	قصص : فولفجانج بورشرت ترجمة : سمير مينا جريس
الطفل المنبوذ	تأليف : ميلان كونديرا ترجمة : رانية خلاف
عدوى اللدود وأحلى سنين	روايتا : ويللا كاثر ترجمة : ايزابيل كمال
الصراع مع الملاك	شعر : جاك بريفير ترجمة : سامى مهدى
نهاية العالم هذا المساء	رواية : كاترين دو ريشو ترجمة : شيرين محمود الخطيب
التراث والتطور	تأليف : إحسان نراقى ترجمة : عبد الوهاب علوب
الحرير	رواية : أليساندرو باريكو ترجمة : طلعت الشايب
محاكمة ترابيس	تأليف : فردريش دورنمات ترجمة : كريم حسين نعمه
لماذا نقرأ الأدب الكلاسيكى	تأليف : إيتالو كالڤينو ترجمة : مى التلمسانى
شهر العسل المر	تأليف : لمجموعة ترجمة : ادوار الخراط

فى الأعداد القادمة

قراءة الرواية

الغول

فن الرواية

رقم الإيداع ٩٩/٣١٨١

طبع بالمركز المصري العربي

شهر العسل المر

هذه قصص إيطالية أحببتها وترجمتها على سبيل الحبّ أتصور أنها نماذج جيدة ودالة على تطور فن القص، هذا الفن الجميل الصعب المراوغ، من صوفية سيلونى عبر واقعية ألفارو ومقدرة بيرانديللو على التحليل النفسيّ العميق، ومن التشويق والطرافة عند فراتيلى إلى الحس الانفعالى عند موراڤيا.

قدمت لهذه القصص بتعريف موجزا أرجو أن يكون نظرة نقدية فى الوقت نفسه للكتاب، تمهدّ لمتعة الطواف بهذا العالم القصصى الشائق المثير. ★

إدوار الخراط